أغوتا كريستوف

مكتبة بغداد
twitter @baghdad_library

البُرهان

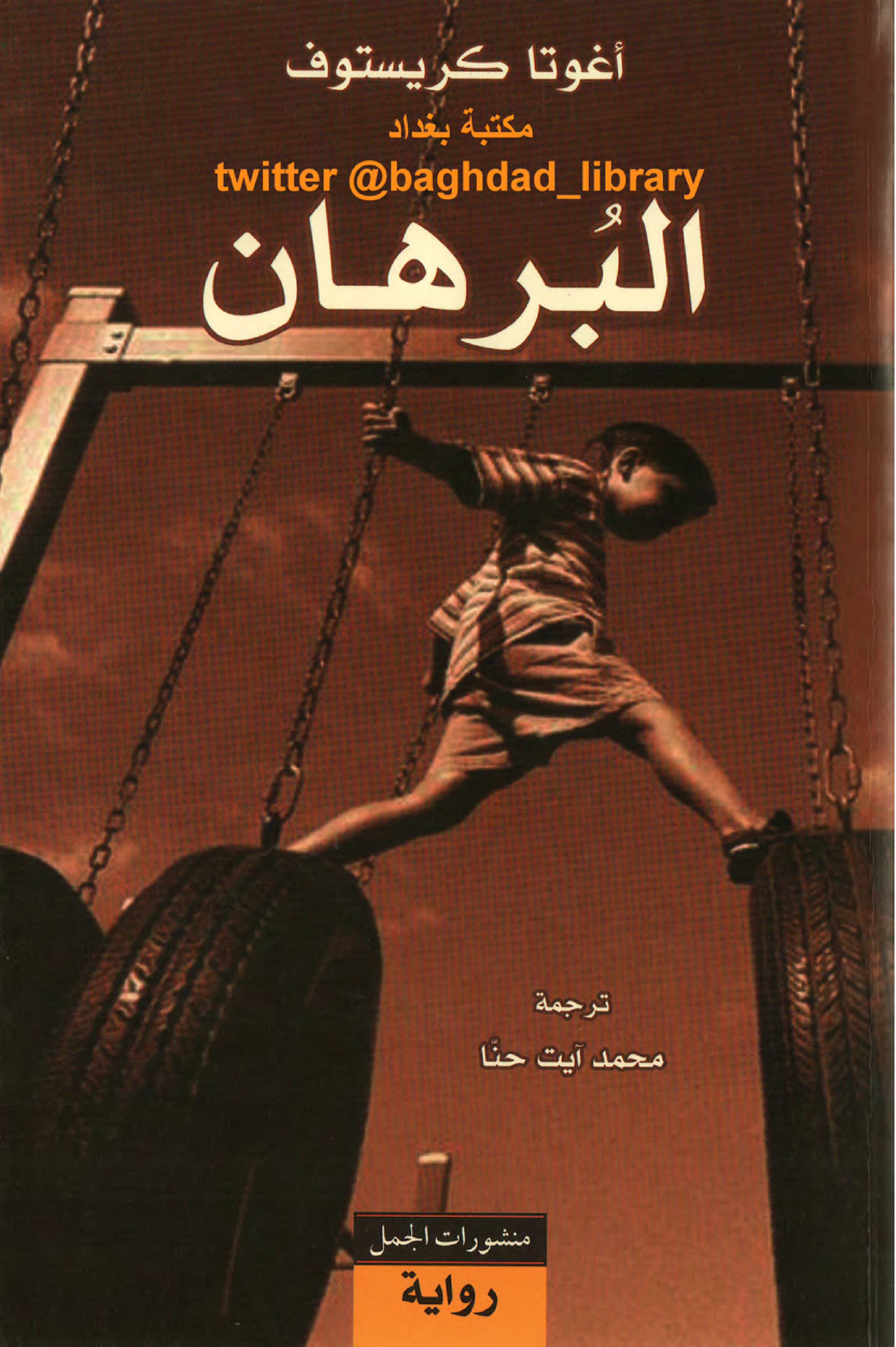

ترجمة
محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

رواية

أغوتا كريستوف

البُرهان

ترجمة

محمد آيت حنّا

منشورات الجمل

twitter @baghdad_library

أغوتا كريستوف: البُرهان، ترجمة: محمد آيت حنّا
الطبعة الأولى ٢٠١٦

Agota Kristof: La Preuve, roman (1988)
© Editions du Seuil

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ - ١ - ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣ بيروت - لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2016*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كلمة من المترجم

لا ريب في أنّ القارئ العربيّ الكريم، يعلم مسبقاً أنّ الأمر يتعلّق بالجزء الثاني من ثلاثية أغوتا كريستوف، التي تتمّ الإشارة إليها عادة بثلاثية مدينة كا. وهي المدينة التي شكّلت الإطار المكاني لأحداث الثلاثية (الدّفتر الكبير ـ البرهان ـ الكذبة الثالثة). بيد أنّ مسألة الثلاثية هذه تتطلّب منّا توضيحاً رفعاً لكلّ لبس ممكن.

ليست الأمثلة ما سيعوزنا إن نحن أردنا الحديث عن نماذج من الكتابات التي تمّ تصنيفها ضمن خانة «الثلاثيات الأدبية»، ولعلّ أشهرها بالنّسبة للقارئ العربيّ تظلّ ثلاثية نجيب محفوظ (بيت القصيرين ـ قصر الشّوق ـ السكّرية). على أنّ ما يثير الانتباه هو أنّه لا يوجد أيّ رابط موحّد يسمح بوضع تعريف محدّد لما نقصده حين نتحدّث عن الثلاثية في مجال الأدب. فالثلاثية نعت ينسحب على أعمال مختلفة تماماً من حيث المعيار الذي يتمّ عبرَه الحكمُ على أعمال ثلاثة بوصفها تشكّل كلاّ يمكن أن يُجمَع تحت مسمّى الثلاثية. فقطعاً ثلاثية نجيب محفوظ ليست هي ثلاثية مدينة داينتسينغ لغونتر غراس (الطّبل الصّفيح ـ القطّ والفأر ـ سنوات الكلاب)، ولا هي ثلاثية نيويورك لبول أوستر، أو ما يسمّى بثلاثية العبث لألبير كامو، ولا... بيد أنّ أيّ ثلاثية أدبية تظلّ محكومةً بسؤالَين أساسيّين، أوّلهما: لماذا تعتبر هذه الأعمال الثلاثة ثلاثيةً؟ أي ما المعيار الذي جعل منها ثلاثية؟ ما الرابط الموحّد بينها؟ وأمّا ثاني

twitter @baghdad_library

السؤالين فهو: إلى أيّ حد ترتبط تلك النّصوص ببعضها ارتباطاً عضوياً ومنطقياً؟ هل بالإمكان قراءة أحدها دون قراءة الآخر؟ وهل من الضروري قراءتها بترتيب منطقيّ، بالتتالي الذي وضعه بها المؤلّف؟ وأحسب أنّ السؤال التالي هو الأهمّ، لأنّه يمس القارئ بشكل مباشر.

لقد كتبت أغوتا أوّلا الدّفتر الكبير، ولم يكن في نيّتها أن تكتب بعده أيّ رواية تمتّ له بصلة، لكنّها وجدت نفسها منجرفة إلى كتابة «البرهان» التي فيها من الحبكة والأحداث والاشتغال الأسلوبي ما يكفي لاعتبارها امتداداً لرواية الدّفتر الكبير. ثمّ أتى الدّور على الرواية/ الكذبة الثالثة لتكمل تدفّق النّهر الذي نبع من مدينة كوزيرغ التشيكية (مدينة كا). لكنّ التتالي الموضوعي بين النّصوص لا يفرض في الواقع أيّ تتالٍ منطقي بينها، إذ بإمكان القارئ أن يبدأ بأيّ نصّ شاء، وينخرط في لعبة زمنية تقوم على ترتيب الأحداث وإعادة تشكيل الوقائع. فالبداية بهذا النّص الذي بين أيدينا (أي البرهان) ممكنة، لأنّه يملك ما يكفي من المقوّمات ليعتبر نصاً تاماً لا يحتاج إلى نصوص مكمّلة، وبإمكان القارئ بعد قراءته العودة إلى النّص الأوّل «الدّفتر الكبير» كمن يعود من زمن الشباب إلى زمن الطّفولة... فالنّصوص كلّها تمثّل وحدة عضوية تجعلها تبني فيما بينها جسور الإحالة، وفي الوقت نفسه تحتفظ باستقلاليّتها الخاصة، وبإمكان أن يشكّل كلّ واحدٍ منها النصّ النّواة الذي ينطلق منها الحكي. بإمكان القارئ إذن أن يسلك الطريق التي شاء في التّعامل مع الثلاثية.

تجدر الإشارة كذلك إلى أنّ الوحدة العضوية بين أعمال أغوتا كريستوف لا تتوقّف عند حدود نصوص الثلاثية، وإنّما كلّ أعمالها ترتبط فيما بينها ترابطاً حميماً، يجعل قراءة كلّ عمل تحيل بشكل أو

بآخر على عمل آخر، ولا ريب في أنّ القراء الذين سبق لهم أن اطّلعوا على كتاب «الأميّة» الذي قمنا بترجمته ونُشر ضمن منشورات الجمل، التي سننشر فيها تباعاً كلّ أعمال الكاتبة المجريّة. قلت، لا ريب في أنّ أولئك القراء سيكونون قد لاحظوا مدى الارتباط الحميمي بين جميع كتابات أغوتا كريستوف وبين حياتها هي نفسها.

أخيراً، منذ نُشر كتاب «الدّفتر الكبير»، وهو يلاقي استحسان القرّاء العرب، الذين أبدوا سعادة بالغة في التّعرف على هذه الكاتبة، وتحرّقاً لقراءة باقي أعمالها... يدين كاتب هذه السّطور (مترجم أغوتا) بالكثير للقرّاء الذين منحوا عمله معنىً... لِمَي أحمد، وراضي الشمريّ، وعبد اللّه الغبين، وإبراهيم الهندال، وحجّي جابر، وفاطمة المرزوقي، ولسعيد بوكرامي ولأصدقاء وقرّاء آخرين سيعرفون أنفسهم وإن لم أذكرهم بالاسم... شكراً!

محمّد آيت حنّا

twitter @baghdad_library

١

حين عاد لوكاس إلى بيت الجدّة، استلقى قرب سياج الحديقة تحت ظلّ الشجيرات، ولبث منتظراً. توقّفت سيارةٌ من سيّارات الجيش أمام مبنى خفر الحدود. نزل بعض العساكر ووضعوا أرضاً جسداً ملفوفاً في غطاءِ تمويهٍ عسكريّ. خرج من البناية رقيبٌ وأشار إلى العساكر بأن يزيحوا الغطاءَ. قال الملازم زافراً:

ـ لن يكون من السّهل التّعرّف على هويّته! على المرء أن يكون أحمق كي يحاول عبور هذه الحدود القذرة، لا بل وفي وضح النّهار!

قال أحد العساكر:

ـ من المفترض أنّ النّاس على علم باستحالة عبورها.

قال عسكريّ آخر:

ـ النّاس هنا على بيّنة. الذين يأتون من مناطق أخرى هم من يحاولون العبور.

قال الرّقيب:

ـ حسناً، هيّا نرى الأبله الذي يسكن في المنزل المقابل، لعلّه يعرف شيئاً.

دخل لوكاس إلى البيت. جلس على المصطبة في زاوية المطبخ.

twitter @baghdad_library

قطّع الخبز، ووضع على الطّاولة قنينة نبيذ وقليلاً من جبن الماعز. قُرِع البابُ. دخل الرّقيب برفقة أحد العساكر.

قال لوكاس:

ـ كنت بانتظاركما. اِجلسا. خذا قليلاً من النّبيذ والجبن.

قال العسكري:

ـ بكلّ سرور.

تناول خبزاً وجبناً. وصبّ لوكاس النّبيذ.

قال الرّقيب:

ـ كنت تنتظرنا؟ لمَ؟

ـ لقد سمعت دويّ الانفجار. كلّما حدث انفجار يأتون ليسألونني عمّا إذا كنت قد رأيت أحدهم.

ـ ولم ترَ أحداً؟

ـ كلاّ.

ـ كالعادة.

ـ أجل، كالعادة. لا أحد يأتي ليخبرني عن نيّته بعبور الحدود.

ضحك الرّقيب، وتناول بدوره نبيذاً وجبناً:

ـ لعلّك رأيت أحداً يجوب المنطقة أو الغابة.

ـ لم أرَ أحداً.

ـ ولو أنّك رأيت أحداً، أكُنتَ لتخبرنا؟

ـ لو قلت لك إنّي كنت سأخبرَكم، لما صدّقتني.

ضحك الرّقيب مرّة أخرى وقال:

ـ أحياناً أسأل نفسي لـمَ يدعونك الأبله؟

ـ أنا أيضاً أتساءل لـمَ يدعونني كذلك. أنا فقط مصاب بمرض عصبيّ تسبّبَت فيه صدمةٌ نفسيّة تعرّضت لها في طفولتي، أيامَ الحرب.

تساءل العسكريّ:

ـ ما معنى هذا؟ ما الذي يقوله؟

بسط لوكاس الأمر:

ـ رأسي مضطرب قليلاً بسبب القصف. لقد أصابني هذا الأمر عندما كنت طفلاً.

قال الرّقيب:

ـ إنّ جبنك طيّبٌ جداً. شكراً. هيّا معنا.

تبعهما لوكاس. أشار الرّقيب إلى الجسد قائلاً:

ـ هل تعرف هذا الرّجل؟ هل سبق أن رأيته؟

تأمّل لوكاس جسد والده المتناثر، ثمّ قال:

ـ لقد شُوِّه تماماً.

قال الرّقيب:

ـ بوسعنا أيضاً أن نتعرّف على شخص مّا من ملابسه، أو حذائه، أو حتّى من يديه أو شعره.

أجاب لوكاس:

ـ كلّ ما أرى أنّه ليس من مدينتنا. ملابسه غريبة عن مدينتنا. لا أحد هنا يلبس بهذا التأنّق.

قال الرّقيب:

twitter @baghdad_library

ـ أشكرك. إنّنا نعرف كلّ ذلك. نحن أيضاً لسنا بلهاء. ما أريد أن أعرفه هو هل سبق لك أن رأيته أو لمحته في مكانٍ مّا.

ـ كلاّ. لم ألمحه في أيّ مكان. لكنّي أرى أنّ أظافره قد اقتُلعت. لقد سبق أن كان مسجوناً.

قال الرّقيب:

ـ لا أحد يعذَّب في سجوننا. الغريب في الأمر أنّ جيوبه فارغة تماماً. ليس بها حتّى صورةٌ أو مفتاح أو محفظة. مع أنّه ينبغي أن يمتلك بطاقة تعريف، وحتّى ترخيص مرور كي يتمكّن من العبور إلى المنطقة الحدودية.

ـ لا بد من أنّه قد تخلّص من تلك الأشياء في الغابة.

ـ هذا ما أعتقده أيضاً. إذا ما صادفت، أثناء جمعك الفطر، أشياء أخرى، ستحملها لنا. أليس كذلك يا لوكاس؟

ـ اعتمد عليّ يا سيادة الرّقيب.

جلس لوكاس على المصطبة في الحديقة، وأرخى رأسه على جدارِ المنزل الأبيضِ. كانت الشّمس تغشى عينيه. أغمضَ:

ـ ما العمل الآن؟

ـ مثل السّابق. ينبغي أن تستمرّ في الاستيقاظ صباحاً، وتهجع مساءً، وتفعل ما عليك أن تفعله للبقاء حيّاً.

ـ سيطول الأمر.

ـ ربّما الحياة بأكملها.

أيقظت صرخاتُ الحيوانات لوكاس. استيقظ وذهب ليعتني ببهائمه.

أطعم الخنازير والدّجاجات والأرانب. انطلق في إثر الماعز عند ضفّة النّهر، أعادها إلى الحظيرة وحلَبها. حمل الحليب إلى المطبخ. جلس على المصطبة عند الزّاوية وظلّ جالساً إلى أن حلّ المساء. إذّاك قام، وخرج من المنزل، وبدأ يسقي الحديقة. كان القمر مكتملاً. وعندما عاد إلى المطبخ أكل القليل من الجبن وشرب نبيذاً. تقيّأ بعد ذلك متدليّاً من النّافذة. جمعَ المائدة. دخل غرفةَ الجدّة، وفتح النّافذة لتهوية المكان. جلس أمام منضدة الزّينة، وأخذ يتأمّل نفسه في المرآة. بعد ذلك بمدّة، فتح لوكاس باب غرفته وتأمّل السرير الكبير. أعاد إغلاق الباب، وانطلق صوب المدينة.

كانت الشوارع قفراً. ولوكاس يحثّ خطاه. توقّف أمام نافذة مضاءة مفتوحة. كانت نافذةَ مطبخٍ. اجتمعت أُسرة حول مائدة العشاء. أمّ وثلاثة أطفال: ولدان وبنت. كانوا يتناولون عصيدةَ تفّاحٍ. الأب غائب. ربّما هو في العمل، أو السّجن، أو الجبهة. أو لعلّه لم يعد بعد من الحرب.

مرّ لوكاس من أمام الحانات الضّاجة، حيث كان منذ عهد قريب يعزف الهارمونيكا. لم يدخل، وإنّما واصلَ طريقَه. سلك أزقّةَ القلعة المظلمةَ، ثمّ الدربَ المعتمَ الضيّق الذي يفضي إلى المقبرة. توقّف أمام قبر الجدّة والجدّ.

توفيت الجدّةُ السّنة الماضية بعدما تعرّضت لجلطة ثانية في الدّماغ.

أمّا الجدّ، فقد توفيَ قبل ذلك بزمنٍ طويل. يشيع أهل القرية أنّ الجدّةَ هي من سمّمه.

لقد توفيَ والد لوكاس اليومَ بينما يحاول عبور الحدود، ولن يعرف لوكاس أبداً موْضعَ قبره.

دخل لوكاس إلى بيته. وبواسطة حبل صعد إلى العليّة. هناك بالأعلى

twitter @baghdad_library

كان ثمّة فراش قشّ، وبطّانيّة عسكريّة بالية، وصندوق. فتح لوكاس الصّندوق، أخرج منه دفتراً مدرسياً، كتب في الدفتر بضعة جُملٍ، ثمّ أغلقه وتمدّد على الفراش.

فوقه كان يتأرجح، في ضوء القمر المتسلّل من المنْوَر، الهيكلان العظميّان، هيكل الأمّ وهيكل الرّضيعة، المعلّقان على عارضة خشبيّة.

أمّ لوكاس وأخته الصّغيرة ماتتا، قتلتهما قذيفة منذ خمس سنوات. حدث ذلك هنا في حديقة بيت الجدّة، أيّاماً قبل نهاية الحرب.

لوكاس جالس على مصطبة الحديقة. عيناه مغمضتان. توقّفت أمام المنزل عربة يجرّها جوادٌ. أيقظ ضجيجها لوكاس. دخل جوزيف الخضّار إلى الحديقة. نظر إليه لوكاس:

ـ ماذا تريد يا جوزيف؟

ـ ماذا أريد؟ إنّه يوم السّوق. لقد انتظرتك حتّى السّاعة السّابعة.

قال لوكاس:

ـ آسف يا جوزيف. لقد نسيت ما اليوم. إذا ما رغبتَ بمقدورنا تحميل البضاعة بسرعة.

ـ أوَ تمزح؟ إنّها الثّانية ظُهراً. لم آتِ لأحمّل البضاعة، وإنّما لأسألك ما إذا كنت ما تزال راغباً في أن أبيع بضاعتك. وإلاّ، ينبغي أن تخبرني. الأمر سيّان بالنّسبة لي، فأنا أفعل ذلك رغبةً في خدمتك.

ـ طبعاً ما أزال راغباً يا جوزيف. فقط نسيتُ أنّ اليومَ يومُ السّوق.

ـ لم تنسَ اليومَ فحسب. وإنّما حدث الأمر أيضاً الأسبوعَ المنصرم، والأسبوع الذي قبله.

ـ ثلاثة أسابيع؟ لم انتبه لذلك.

هزّ جوزيف رأسه:

ـ الأمور لا تسير على ما يرام عندك. ما الذي صنعتَه بخضرك وفواكهك طيلةَ الأسابيع الثلاثة الماضية؟

ـ لا شيء. لكنّي أحسب أنّي كنت أسقي الحديقة كلّ يوم.

ـ تحسبُ؟ هيا لنرى.

قصدَ جوزيف حديقةَ الخضراوات خلفَ المنزل، ولحق به لوكاس. اتّكأ الخضّار على السّياج وصاحَ:

ـ اللّعنة! لقد تركتَ كلّ شيء يفسد! أنظر إلى هذه الطماطم الملقاة على الأرض، وهذه الفاصوليا التي نمت فوق الحدّ، وهذا الخيار الأصفر، وهذه الفراولة السوداء! هل فقدت عقلك، أم ماذا؟ كيف تترك بضاعة بهذه الجودة تفسدُ! تستحقّ أن تشنق أو تُرمى بالرّصاص! لقد أضعت محصولك من البازلاّء لهذه السّنة، ومحصول المشمش أيضاً. ما زال بالإمكان إنقاذ التّفاح والخوخ. إليَّ بدَلوٍ!

أتى لوكاس بدلو، وشرع جوزيف في جمع التّفاح والخوخ المتساقط على العشب. قال للوكاس:

ـ خذ دلواً آخرَ واجمع كلّ ثمرة فاسدة. ربما أكلتها خنازيرك. اللّعنة! ما الذي حلّ ببهائمك!

هرع جوزيف إلى الفناء الخلفيّ، وتبعه لوكاس. قال جوزيف وهو يمسح جبينَه:

ـ حمداً لله، لم تَنفِقِ البهائمُ. أحضر لي مذراةً حتّى أنظّف المكان قليلاً. أيّ معجزةٍ تلك التي جعلتك لا تنسى إطعام الحيوانات!

twitter @baghdad_library

ـ الحيوانات تفرض على المرء أن لا ينساها. إنّها تصرخ ما إن تحسّ بالجوع.

إشتغل جوزيف ساعاتٍ، وساعده لوكاس خاضعاً لأوامره.

وحين جنحت الشّمسُ إلى المغيب، دخلا إلى المطبخ.

قال جوزيف:

ـ ليأخذني الشّيطان! لم يسبق لي أن شممت رائحةً كريهة إلى هذا الحدّ. ممَّ تنبعث هذه النتانة؟

أجال بصره في المكان، فوقعت عيناه على حوضٍ كبيرٍ مملوء بحليب الماعز.

ـ لقد حَمُضَ الحليبُ. أخرج هذا الشّيء من هنا، ألقِ به في النّهر.

نفّذ لوكاس الأمر. وعندما عاد، كان جوزيف قد هوَّى المطبخ، ونظّف زجاج النّوافذ. نزل لوكاس إلى القبو، ثمّ صعد حاملاً قنينة خمرٍ ولحم خنزير مقدّد.

قال جوزيف:

ـ يلزمنا خبز مع هذا.

ـ ليس لديّ خبز.

قام جوزيف دون أن ينبس بكلمة، وذهب لإحضار رغيف خبزٍ من عربته.

ـ هوَذا الخبز. لقد اشتريته بعد عودتي من السّوق. نحن، لم نعد نخبز بالبيت.

أخذ جوزيف يشرب ويأكل، ثمّ سأل لوكاس:

ـ ألا تشرب؟ ولا تأكلُ أيضاً. ما بك يا لوكاس!

ـ إنّي متعبٌ. لا أستطيع الأكل.

ـ تحت سُمرة سحنتكَ يبرزُ شحوبٌ، وجسمكَ جلدٌ على عظم.

ـ بسيطة. سيمرّ هذا الأمر.

قال جوزيف:

ـ كنتُ على يقين أنّ ثمّة شيئاً ليس على ما يرام في رأسك. لا ريب في أنّ الأمر يتعلّق بفتاةٍ.

ـ كلاّ، الأمر لا يتعلّق بفتاةٍ.

غمز جوزيف بعينه:

ـ إنّي أعرف الشّباب، لا بأس. لكنّ ما يحزّ في نفسي هو أن يضيّع شابٌ وسيم مثلك نفسه بسبب فتاةٍ.

قال لوكاس:

ـ ليس بسبب فتاةٍ.

ـ بسبب ماذا إذن؟

ـ لستُ أدري.

ـ لستَ تدري؟ في هذه الحال عليك أن تستشير طبيباً.

ـ لا تقلق بشأني يا جوزيف، سأكون بخير.

ـ سيكون بخير، سيكون بخير. يُهمل بستانَه، ويترك الحليب حتّى يحمضّ، ولا يأكل، ولا يشرب، ويحسبُ أنّ الأمور يمكن أن تسير هكذا.

لم يحر لوكاس جواباً.

وواصلَ جوزيف:

twitter @baghdad_library

ـ اِسمع يا لوكاس. حتّى لا تنسى مرّة أخرى يومَ السّوق، سأستيقظ ساعةً قبل موعد استيقاظي، وسآتي لإيقاظك، ونحمّل معاً الخضرَ والفواكه والحيوانات التي ترغب في بيعها. أيناسبكَ ذلك؟

ـ أجل، أشكرك يا جوزيف.

أعطى لوكاس جوزيفَ قنينةَ خمرٍ أخرى، ورافقه حتّى العربة.

وبينما يحثّ حصانه صاح جوزيف:

ـ اِحذر يا لوكاس! إنّ الحبّ يكون أحياناً قاتلاً.

لوكاس جالس على مصطبة الحديقة. عيناه مغمضتان. وعندما يفتحهما، يبصر فتاةً صغيرةً تتأرجح على غصن شجرة كرز:

سألها لوكاس:

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟ من أنت؟

قفزت الفتاة الصّغيرة إلى الأرض، وأخذت تلعب بالأشرطة الورديّة المعقودة على ضفائرها:

ـ الخالة ليوني تطلب منك الذّهاب إلى بيت الخوري. إنّه وحيد، لأنّ الخالة ليوني لم تعد تستطيع العملَ، هي راقدةٌ بالبيت، ما عادت تقوم من فراشها، إنّها عجوز طاعنٌ في السّن. وأمّي لا تملك الوقت لزيارة الخوري، لأنّها تعمل في الفبركة، وأبي كذلك.

قال لوكاس:

ـ فهمتُ. ما سنّك؟

ـ لا علم لي. آخر مرّة كان عيد ميلادي، كنت في الخامسة من

عمري. لكنّ الفصل كان آنذاك شتاءً. والآن قد وصل الخريف، وكان بإمكاني أن التحق بالمدرسة لولا أنّي وُلدت متأخّرةً.

ـ أَ وَصلَ الخريفُ!

ضحكت الفتاة الصغيرة:

ـ أما كنت تدري؟ لقد حلّ الخريف منذ يومين، على الرّغم من أنّنا قد نحسب الوقتَ صيفاً لحرارة الجوّ.

ـ تعرفين الكثير من الأمور!

ـ أجل، إنّ لديّ أخاً أكبرَ يعلّمني كلّ شيء. اسمه سيمون.

ـ وأنتِ، ما اسمك؟

ـ أنييس.

ـ إنّه اسم جميل.

ـ لوكاس أيضاً اسم جميل. أعرف أنّ لوكاس هو أنتَ، لأنّ خالتي قال لي: «نادي لوكاس، إنّه يسكن آخرَ البيوت، قبالةَ الحدود ـ الكبيرة».

ـ ألم يوقفك الحرّاس؟

ـ لم يبصروني. لقد مررت من خلف.

قال لوكاس:

ـ أودّ لو كانت لي أخت صغيرة مثلك.

ـ أليست لك أخت؟

ـ كلاّ. لو كانت لديّ أخت لصنعت لها أرجوحة. أترغبين في أن أصنع لك أرجوحةً؟

أجابت أنييس:

twitter @baghdad_library

ـ لديّ أرجوحة في البيت. لكنّي أفضّل أن أتأرجح فوق شيء آخر. ذاك أشدّ متعة.

قفزت وأمسكت بغصن شجرة الكرز وأخذت تتأرجح مقهقهة.

سألها لوكاس:

ـ ألا يحدث أن تكوني حزينةً؟

ـ كلاّ لأنّ دائماً ما يسليّني شيءٌ عن شيء.

قفزت إلى الأرض:

ـ عليك الإسراع بالذّهاب عند السيّد الخوري. لقد طلبت منّي خالتي إخبارك بهذا أمس، وقبل الأمس، وقبل قبل الأمس، لكنّي كنت دائماً أنسى. ستوبّخني.

قال لوكاس:

ـ لا تقلقي، سأذهب هذا المساء.

ـ حسناً، سأعود إذن إلى المنزل.

ـ ابقي قليلاً بعد. هل تحبين سماع الموسيقى؟

ـ أيّ نوع من الموسيقى؟

ـ سترينَ ذلك. تعالي.

حمل لوكاس الفتاة الصغيرة بين ذراعيه، ودخل إلى غرفته، ثمّ وضع الطّفلة على السّرير الكبير، ووضع أسطوانةً في الحاكي القديم. وجلس على الأرض بجانب السّرير ينصت إلى الموسيقى.

سألته أنييس:

ـ أتبكي؟

هزّ رأسَه.

قالت:

ـ أنا خائفة. لا أحبّ هذه الموسيقى.

أمسك لوكاس إحدى قدمي الفتاة الصغيرة بيده، وضغط عليها. صاحت:

ـ إنّك تؤلمني! أتركني!

خفّ لوكاس طوقَ أصابعه.

وعندما توقّفت الأسطوانة، قام لوكاس ليقلب وجهها الآخر. كانت الفتاة قد اختفت. وظلّ لوكاس يستمع إلى الأسطوانات حتّى غابت الشّمس.

مساءً، أعدّ لوكاس سلّةَ خضرٍ، وبطاطسَ، وبيضاً، وجُبناً. قتل دجاجةً ونظّفها، كما حمل حليباً وقنينة خمر.

رنّ جرس الكنيسة، لكن لم يفتح أحد. دخل من باب الخدم الذي كان مفتوحاً، ووضع سلّته في المطبخ. دقّ باب الغرفة، ثمّ دخل.

كان الخوريّ، وهو شيخٌ طويل القامة نحيف العود، جالساً إلى مكتبه. على ضوء شمعة يلاعبُ نفسَه الشّطرنجَ.

قرّب لوكاس كرسيّاً من الكتب، وجلس قبالة الشّيخ وقال:

ـ عفوك أبتِ.

قال الخوري:

ـ سأدفع لك ما عليّ من ديونٍ شيئاً فشيئاً يا لوكاس.

سأله لوكاس:

ـ أَ مُنذُ وقتٍ طويلٍ لم آتِ؟

twitter @baghdad_library

ـ منذ بداية الصّيف. ألا تذكرُ ذلك؟

ـ كلاّ. من كان يأتيك بالطّعام طيلة هذه المدّة؟

ـ كانت ليوني تأتيني كلّ مساءٍ بقليلٍ من الحساء. لكنّها مرضت من أيامٍ.

قال لوكاس:

ـ سامحني يا أبتِ.

ـ ماذا تقول؟ علامَ أسامحك؟ لم أسدد لك مالك منذ أشهرٍ عديدة. لم يعد لديّ مالٌ. لقد تمّ فصل الكنيسة عن الدّولة، وما عدتُ أتقاضى راتباً عن عملي. صار عليّ أن أتعيّش من هبات المؤمنين. لكنّ النّاس يخشون أن يُنظر إليهم نظرةً سيّئة إن هم أتوا إلى الكنيسة. وحدهنّ بعض العجائز الفقيرات يحضرن القدّاسَ.

ـ كوني لم آتِ لزيارتك ليس مردّه أنّك مدينٌ لي بالمال. إنّ الأمر أخطرُ من ذلك.

ـ كيفَ أخطر من ذلك؟

خفض لوكاس رأسه:

ـ لقد نسيتك تماماً. ونسيتُ أيضاً حديقتي، والسّوقَ، والحليبَ والجبنَ. حتّى أنّني نسيت أن آكل. نمتُ شهوراً طوالاً في العليّة، كنتُ خائفاً من دخول غرفتي. كان عليّ انتظار مجيء فتاةٍ صغيرةٍ، ابنةُ أختِ ليوني، لأتشجّع وأدخلَ الغرفة. لقد ذكّرتني الفتاة أيضاً بواجبي تُجاهك.

ـ ليس لديك أيّ واجب، أيّ التزام، تجاهي. أنت تبيع بضاعتك، وتتعيّش من ثمنها. إذا لم يعد بإمكاني أن أدفع ثمن البضاعة، فطبيعيّ أن تتوقّف عن مدّي بها.

ـ أكرّر لك، ليست المسألة مسألة نقودٍ. حاول أن تفهمني.

ـ وضّح لي. أنا مُصغٍ إليك.

ـ ما عدتُ أعرف كيف بإمكاني الاستمرار في العيش.

قام الخوري، وأمسك وجه لوكاس بين يديه:

ـ ما الذي أصابك بُنيَّ؟

هزّ لوكاس رأسه:

ـ ليس بوِسعي قول المزيد. الأمر أشبه بالمرض.

ـ أفهم، ذاك من أدواء النّفس. سبب مرضك سنُّك الهشّة، وربّما أيضاً عِظَم وحدَتِك.

قال لوكاس:

ـ ربمّا. سأعدّ الطّعام، ونأكل معاً. فأنا أيضاً مضى عليّ وقتٌ طويلٌ دون أن آكلَ. حين أحاولُ الأكلَ، أتقيّأ. ربّما برفقتك أستطيع الأكل.

ذهب إلى المطبخ، أوقد النّار، وضع الدّجاجة والخضر لتنضج. حضّر المائدة، وفتح قنينة الخمر.

دخل الخوري إلى المطبخ:

ـ أكرّر لك يا لوكاس، ما عاد بإمكاني دفع ثمن بضاعتك.

ـ لكنّ عليك أن تأكل.

ـ أجل، لكنّي لستُ بحاجة إلى هذه الوليمة. يكفيني القليل من البطاطس أو الذرة.

قال لوكاس:

ـ ستأكل ما أحضره لك. ولن نتحدّث مرّة أخرى عن المال.

twitter @baghdad_library

ـ لا أستطيع قبول عرضك.

ـ أسهل على المرء أن يعطيَ من أن يقبلَ، أليس كذلك؟ إنّ الكِبر خطيئةٌ، وأيّ خطيئةٍ يا أبتِ!

تناولا طعامهما صامتَين. شربا النّبيذ. لم يتقيّأ لوكاس. وبعدما فرغا من الأكل، غسل الأواني. عاد الخوري إلى غرفته، وتبعه لوكاس:

ـ عليّ الانصراف الآن.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ أهيمُ في الطّرقات.

ـ أستطيع أن أعلّمك لعب الشّطرنج.

قال لوكاس:

ـ لا أعتقد أنّ الأمر سيثير اهتمامي. إنّها لعبةٌ معقّدة، تتطلّب قدراً كبيراً من التّركيز.

ـ لنُحاول.

شرح الخوري قواعدَ اللّعبة. ربح لوكاس. سأله الخوري:

ـ أينَ تعلّمتَ لعبَ الشّطرنج؟

ـ في الكتب. لكنّها المرّة الأولى التي ألعب فيها على الواقع.

ـ ستعود مرّة أخرى لتلاعبني؟

وعاد لوكاس كلّ مساء. تطوّر أداء الخوري، وصارت الجولات أكثر إثارةً، ولو أنّ لوكاس ظلّ يربح دائماً.

عاد لوكاس للنّوم في غرفته، على السّرير الكبير. ولم يعد ينسى أيّام السّوق، ولا يُهمل الحليبَ حتّى يحمضّ. يعتني بالحيوانات والحديقة

وشؤون البيت. يتجوّل في الغابة لاقطاً الفطرَ والأعواد الجّافة. وعاد أيضاً إلى الصّيد.

حين كان طفلاً، كان لوكاس يمسك الأسماك بيديه أو بالصّنارة. والآن قد ابتكر نظاماً يقوم على تحريف مجرى أسماك النّهر والدّفع بها إلى حوض لا تستطيع الخروج منه.

وما على لوكاس سوى أن يمسك بعضاً منها بالشّبكة كلّما احتاج سمكاً طرياً.

مساءً يتناول لوكاس طعامه مع السيّد الخوري، ويلعبان جولة شطرنجٍ أو جولتين، ثمّ يهيم على عادته بين طرقات المدينة.

وذات مساءٍ، دخلَ إلى أوّل حانةٍ صادفها في طريقه. كان هذا المكان فيما مضى مرتّباً جداً، حتّى أيّامَ الحرب. أمّا اليومَ فقد صار مكاناً معتماً وشبه فارغ.

سألته النّادلة، الذميمة المتعبة، صائحةً من وراء مَشربِها:

ـ كم؟

ـ ثلاثة.

جلس لوكاس إلى طاولة ملطّخة بالخمر ورماد السّجائر. حملت له النّادلة ثلاثة أقداح من نبيذ البلد. وقبضت النقود فوراً.

وعندما شرب لوكاس أقداحه الثلاثة، قام مغادراً. سار بعيداً حتّى بلغ ساحةَ برانسيبال. توقّف أمام المكتبة ـ الورّاقة، وتأمّل طويلاً واجهةَ العرض: دفاتر مدرسيّة، وأقلام، ومماحٍ، وبضعة كتبٍ.

دخل لوكاس إلى الحانة المقابلة.

twitter @baghdad_library

في هذه الحانة زبناء أكثر، لكنّها أشدّ قذارة من الحانة السّابقة. الأرضيّة تغطّيها نشارة الخشب.

جلس لوكاس قريباً من الباب المفتوح، لأنّه لم يكن في المحلّ موضع آخر للتهوية.

فرقةٌ من خفر الحدود تحتلُّ طاولة كبيرة. برفقتهم فتيات. كانوا يغنّون.

جلس شيخ رثّ الثياب إلى طاولة لوكاس، وقال له:

ـ أتعزفُ شيئاً، قُل؟

نادى لوكاس:

ـ قنينةٌ وكأسَين!

قال الشيخ الضئيل:

ـ لم أُرد أن تدعوني إلى كأسٍ، كلّ ما أردته هو أن تعزف. مثلما كنت تفعل فيما مضى.

ـ ما عدتُ أقدر على العزف كما مضى.

ـ أفهمك. لكن اِعزف مع ذلك. سيسرّني الأمر.

صبّ لوكاس الخمر:

ـ اِشرب.

أخرج من جيبه هارمونيكا وبدأ يعزف أغنية حزينة، أغنية عن الحبّ والفراق.

بدأ خفر الحدود والفتيات يردّدون الأغنيّة.

قامت إحدى الفتيات من موضعها وأتت للجلوس بجانب لوكاس، وأخذت تداعب شعره:

ـ أُنظروا ما أظرفه!

توقّف لوكاس عن العزف وقام.

قال الفتاة ضاحكة:

ـ يا له من متوحّش صغير!

كانت السّماء تمطر في الخارج. دلف لوكاس إلى حانة ثالثة، وطلب ثلاثة أقداح. عندما بدأ العزف، استدارت الوجوه شطرَهُ، ثمّ عادت للغطس في الكؤوس. هنا يشرب النّاسُ، لكن لا يتحدّثون.

فجأةً قام رجلٌ مبتور السّاق إلى وسط الحجرة، تحتَ المصباح العاري الوحيد، ووقف مستنداً إلى عكازَيه، وأخذ يرجّع نشيداً ممنوعاً.

رافق لوكاس غناءَ الرّجل بعزفه.

عبّ باقي الزّبناء كؤوسهم بسرعةٍ، وغادروا الحانة واحداً تلوَ الآخر.

فاضت من عيني الرّجل دمعتان حين بلغ آخر بيتَيْن من نشيده:

«هذا الشّعب قد دفع ثمنَ

الماضي والمستقبل»

في اليوم الموالي قصدَ لوكاس المكتبة ـ الورّاقة. اقتنى ثلاثة أقلام رصاص، وحزمة أوراق مربّعة، ودفتراً سميكاً. وحين أتى الدّفعَ قال له الكُتبيّ، وهو رجل سمين الجسمِ شاحبُ الوجه:

ـ لم أرَكَ منذ زمنٍ طويلٍ. أكنتَ غائباً؟

ـ كلاّ. كنت فقط مشغولاً كثيراً.

ـ المعدّل الذي تستهلك به الورقَ مثيرٌ للعجب. أحياناً أتساءل ماذا بوسعك أن تفعل به.

twitter @baghdad_library

قال لوكاس:

ـ أحبّ ملء الأوراق البيضاء بقلم الرّصاص. الأمرُ يريحني.

ـ ستكون إذن قد حبّرت من الأوراق ما يطاولُ جبلاً.

ـ أضيع الكثير منها. الأوراق التي أُفسدها، تنفعني في إيقاد النّار.

قال الكتبيّ:

ـ للأسف، ليس لي زبائنُ مواظبون مثلك. لم تعد التجارة رائجة. قبل الحرب، كانت الأمور بخير. كانت ثمّة الكثير من المدارس هنا. معاهد عليا، وداخليّات، ومدارسُ إعدادية. كان الطلاّب يتجوّلون ليلاً بين الأزقّة مستمتعين. كان ثمّة أيضاً معهدٌ موسيقي، وكانت تقامُ أسبوعياً حفلاتٌ موسيقية وعروض مسرحيّة. أنظر إلى الأزقّة الآن. ليس ثمّة غير الأطفال والشيوخ. وبعض العمّال والخمّارين. لم يعد ثمّة شباب بهذه المدينة. تمّ نقل المدارس جميعها إلى المناطق الدّاخلية بالبلاد، باستثناء المدارس الابتدائية. وحتّى الشّباب الذين لا يدرسون يهاجرون صوب المدن الحيّة. مدينتنا مدينةٌ ميّتة، خاوية على عروشها. منطقة حدودية مغلقة ومنسية. هنا يعرف المرءُ كلّ السّاكنةِ رأيَ العين. هي الوجوه نفسها دائماً. لا يستطيع أيّ غريب طرقَ مدينتنا.

قال لوكاس:

ـ ثمّة حرس الحدود. هم شبابٌ.

ـ أجل، المساكين. محبوسون في ثكناتهم، يخرجون ليلاً في دوريات. وكلّما مرّت ستّة أشهر، يتمّ تبديلهم تجنّباً لأن يخلقوا علاقات مع السّكان. تبلغ ساكنة هذه المدينة عشرةَ آلاف، مضافاً إليها ثلاثة آلاف جنديّ أجنبي وألفا حارس حدود منّا. قبل الحرب، كان ثمّة خمسة آلاف طالب، بالإضافة إلى السيّاح الذين يأتون صيفاً. كان السياح

يقصدون مدينتنا من داخل البلاد، وأيضاً ممّا وراء الحدود. سأله لوكاس:

ـ أوَ كانت الحدود مفتوحة؟

ـ بالطّبع. كان المزارعون يأتون من الجانب الآخر لبيع محصولهم هنا، كما كان الطلبة يعبرون إلى الجهة الأخرى كي يشهدوا احتفالات القرية. وكان القطار يكمل رحلته حتى يبلغ أقرب المدن الكبرى بالبلد الآخر. اليوم، صارت مدينتنا هي المحطّة الأخيرة، نهاية السّير. الجميع ينزلون هنا! ويقال لهم: اِكشفوا وثائقكم!

سأله لوكاس:

ـ أ كان بالإمكان التنقّل بحريّة؟ أ كان بالإمكان السفر خارجَ البلاد؟

ـ بالطّبع. أنت لم تشهد ذاك الزمن. اليوم، ما عاد بإمكان المرء أن يخطو خطوةً واحدةً دون أن يُطالب بإظهار بطاقة هويّته. ويلزم إذنٌ خاصّ للتنقّل عبر المنطقة الحدودية.

ـ وإذا لم نكن نتوفّر على بطاقة هويّة؟

ـ يستحسن أن تكون لديكَ.

ـ أنا لا أملكها.

ـ ما سنّك؟

ـ خمس عشرةَ سنةً.

ـ ينبغي أن تحصل على بطاقة. حتّى الأطفال لديهم بطاقة تعريف تمنحها لهم المدرسة. كيف تفعل لمغادرة المدينة والعودة إليها؟

ـ أنا لا أغادر المدينة قطّ.

twitter @baghdad_library

ـ قطّ؟ ألا تذهب حتّى إلى المدينة المجاورة حين ترغب في شراء شيء ولا تعثر عليه هنا؟

ـ كلاّ. لم أغادر هذه المدينة، منذ أحضرتني أمّي إلى هنا. وكنتُ آنذاك في السادسة من عمري.

قال الكتبيّ:

ـ إذا ما أردت تجنّب المشاكل، أُحصل على بطاقة هويّة. اذهب إلى البلدية واشرح لهم وضعك. وإذا ما اعترضتكَ العراقيلُ، اسأل عن السيّد بيتر ن. وقُل لهُ إنّك من طرف فيكتور. أنا وفيكتور قادمان من المدينة نفسها. كلانا من أبناء الشمال. هو يتقلّد منصباً هاماً في الحزب.

قال لوكاس:

ـ هذا لطف منك. لكن، لمَ ستعترضني العراقيل للحصول على بطاقة هوية؟

ـ لا أحد يدري.

دلف لوكاس إلى المبنى الكبير قربَ القلعة. كانت الأعلام ترفرف في الواجهة. والعديد من اللافتات السوداء المذهّبة تشير إلى المكاتب:

«المكتب السياسي للحزب الثوري»

«كِتابة الحزب الثوري»

«جمعية الشّباب الثوري»

«جمعية النساء الثوريات»

«فيدرالية النقابات الثورية»

وفي الجهة الأخرى من الباب، لافتة رمادية بسيطة كُتب عليها بالأحمر:

«المصالح الجماعية، الطابق الأوّل»

صعد لوكاس إلى الطابق، قرع نافذة كامدة مكتوب أسفلها: «بطاقات الهوية».

فتح النافذة الجرّارةَ رجلٌ يرتدي بلوزةً رمادية، وأخذ يحدّق في لوكاس دون أن ينبس بشيء.

قال لوكاس:

ـ صباح الخير سيّدي. أودّ الحصول على بطاقة هويّة.

ـ تقصد أنّك تريد تجديدها. هل انتهت صلاحية بطاقتك؟

ـ كلاّ يا سيّدي. ليست لديّ بطاقة. لم تكن لديّ قطّ. قيل لي إنّ عليّ أن أحصل عليها.

سأله الموظّف:

ـ ما سنّك؟

ـ خمس عشرة سنةً.

ـ بالطّبع إذن عليك أن تتوفّر على بطاقة تعريف. هاتِ بطاقتك المدرسية.

قال لوكاس:

ـ لا أملك أيّ بطاقة.

قال الموظّف:

ـ غير ممكن. إذا كنت ما تزال في المدرسة الابتدائية، فستكون

twitter @baghdad_library

لديك بطاقة تلميذ؛ وإذا ما كنت طالباً، فستكون لديك بطاقة طالب؛ أمّا إذا كنت متعلّماً حِرفيّا، فستكون لديك بطاقة متعلّم.

ـ قال لوكاس:

ـ أنا آسف. ليست لدي لا هذه ولا تلك. لم يسبق لي أن ذهبت إلى المدرسة.

ـ كيف ذلك؟ إنّ المدرسة إجبارية حتى سنّ الرابعة عشرة.

ـ لقد تمّ إعفائي من الدّراسة، بسبب اضطراب نفسيّ.

ـ واليوم؟ ما الذي تفعله اليوم؟

ـ أتعيّش ممّا أنتجه في بستاني. كما أعزف مساءً بالحانات.

قال الموظّف:

ـ آه، هذا أنت. لوكاس ت.، هذا هو اسمك؟

ـ أجل.

ـ برفقة من تعيش؟

ـ أقطن بمنزل جدّتي قرب الحدود الكبيرة. أعيش بمفردي. لقد ماتت جدّتي السنة الماضية.

هَرش الموظّف رأسه:

ـ اِسمع، أنت حالة خاصّة. عليّ أن استفسر الأمر. لا أستطيع اتّخاذ القرار بمفردي. عُد بعد أيام.

ـ هل يقدر بيتر ن. أن يسوّيَ المسألة؟

ـ بيتر ن.؟ كاتب الحزب؟ هل تعرفه؟

أمسك سماعة الهاتف. قال لوكاس:

ـ أحمل توصية من فيكتور.

قطع الموظّف الاتّصال، وخرج من مكتبه قائلاً:

ـ تعال. سننزل طابقاً.

طرقَ باباً مكتوباً عليه: «كِتابة الحزب الثوري». دخلا. كان ثمّة شابٌ جالسٌ خلف مكتب. مدّ له الموظّف بطاقة فارغة:

ـ الأمر يتعلّق ببطاقة هويّة.

ـ سأتكفّل بالأمر. دعنا.

خرج الموظّف، فقام الشّاب ومدّ يده إلى لوكاس:

ـ صباح الخير يا لوكاس.

ـ أَ تعرفني؟

ـ جميع من بالمدينة يعرفونك. يسعدني أن أخدمك. هيّا لنعبّئ بطاقتك. النّسب، الاسم، العنوان، تاريخ الميلاد. أنت بعدُ في الخامسة عشر من عمرك؟ تبدو أكبر من سنّك بكثير. مهنتك؟ أكتبُ «موسيقيّ»؟

ـ أتعيّش أيضاً على الزراعة ببستاني.

ـ لنكتب إذن «بستانيّ»، هكذا يبدو الأمر جاداً أكثر.

حسناً، شعرٌ كستنائي، عيون رمادية... الانتماء السياسيّ؟

قال لوكاس:

ـ أُشطب هذا.

ـ أجل. وهنا، ما الذي تريدني أن أكتب: «تقديرات السلطات»؟

ـ «أبله»، أكتب أبله إن استطعت. لقد أُصبت برضّة نفسية، ولست طبيعياً حقاً.

twitter @baghdad_library

قال الشّاب ضاحكاً:

ـ لستَ طبيعياً حقاً؟ من بوسعه تصديق ذلك؟ لكنّك محقّ، بوسع تقديرٍ مماثل أن يجنّبك الكثير من المتاعب. التجنيدُ، مثلاً. سأكتب إذن: «اضطراب نفسيّ مزمن». يناسبك الأمر؟

أجاب لوكاس:

ـ نعم سيدي. شكراً سيدي.

ـ سَمِّني بيتر.

اِقترب بيتر من لوكاس ومدّ له بطاقته. وبيده الأخرى لمس وجهه برفقٍ. أغلق لوكاس عينيه. قبّله بيتر قبلةً طويلةً في فمه ممسكاً رأسه بين يديه. ثمّ نظر مرّة أخرى إلى وجهه قبل أن يعاود الجلوس إلى مكتبه:

ـ سامحني يا لوكاس، بيد أنّ جمالك خلخلني. إنّ مثل هذه الأشياء لا تغتفر في الحزب.

قال لوكاس:

ـ لن يعلم بالأمر أحد.

قال بيتر:

ـ نقيصةٌ مثل هذه لا يمكن إخفاؤها العمرَ كلَّهُ. لن أظلّ في هذا المركز طويلاً. إذا ما كنت هنا الآن، فلأنّني كنت قد فررت من الخدمة العسكرية، سلمت نفسي للجيش العدو، وعدت مع محرّرينا المنتصرين. كنت ما أزال بعدُ طالباً حين تمّ إرسالي إلى الحرب.

قال لوكاس:

ـ ينبغي أن تتزوّج، أو تتّخذ عشيقةً على الأقلّ، حتى تتجنّب

الشبهات. من السهل عليك إغراء امرأة. أنت وسيمٌ وفحلٌ، وحزين. النساء يحببن الرجال الحزينين. ثمّ إنّ وضعك الاجتماعي ممتاز.

قال بيتر ضاحكاً:

- لا رغبة لديّ البتّة في إغراء امرأة.

قال لوكاس:

- مع أنّ ثمّة نساءً يمكن أن تحبّهنّ بطريقة مّا.

- أنت تعرف الكثير يا لوكاس، مقارنةً بسنّك!

- لا أعلم شيئاً. أخمّن فقط.

قال بيتر:

- إذا ما احتجت أيّ شيء، تعالَ إليّ.

twitter @baghdad_library

٢

إنّه آخر أيّام السّنة. ضربَ الأرضَ بردٌ قارسٌ قادمٌ من الشّمال.

نزل لوكاس إلى النهر. حمل إلى السيد الخوري أسماكاً ليطهوها في وجبة ليلة الميلاد.

كان الليل قد حلّ. تزوّد لوكاس بمصباح غاز ومعول. وكان قد بدأ في إزاحة الثلج الذي ملأ الحوض، حينَ سمع بكاءَ طفل. وجّه مصباحه شطرَ مصدر البكاء.

كانت ثمّة امرأة جالسة على الجسر الصغير الذي كان لوكاس قد بناه منذ سنوات عديدة. كانت المرأة متلفّعة في غطاءٍ تنظرُ إلى النهر الذي أخذت تتشكّل فوق مياهه قطعُ ثلج وجليد. تحت غطائها رضيعٌ يبكي.

دنا لوكاس من المرأة وسألها:

ـ من أنت؟ ماذا تفعلين هنا؟

لم تحر جواباً، وظلّت عيناها السوداوان تحدّقان في نور المصباح.

طوّقها بذراعه اليمنى، وقادها إلى منزله، بينما الطفل ما يزال يبكي.

المطبخ دافئ. جلست المرأة، ثمّ أخرجت ثديها وألقمته الرّضيع.

إِستدار لوكاس، ووضع على النّار قدراً بها بقيّةٌ من حساء خُضر.

غفا الطفل على حجر أمّه. أخذت الأمّ تنظر إلى لوكاس ثمّ قالت:

ـ كنت أريد أن أغرقه في النّهر، لكنّي لم أقدر.

سألها لوكاس:

ـ تريدين أن أفعل ذلك؟

ـ أوَ تستطيع؟

ـ سبق أن أغرقتُ فئراناً وقططاً وجراءً.

ـ إغراق طفلٍ أمرٌ آخر.

ـ تريدين أن أفعل ذلك، أم لا تريدين؟

ـ كلاّ، ما عدتُ أريد. فات الأوان.

بعد برهة صمتٍ، قال لوكاس:

ـ ثمّة غرفة شاغرةٌ هنا. تستطيعين النوم فيها مع طفلك.

رفعت عينيها السوداوين إلى لوكاس، وقالت:

ـ أشكرك. اِسمي ياسمين.

فتح لوكاس باب غرفة الجدّة:

ـ ضعي طفلك على السرير. واتركي باب الغرفة مفتوحاً ليعمّها الدفء. حين تنتهين من الأكل عودي للنوم بجانبه.

وضعت ياسمين طفلها على سرير الجدّة، وعادت إلى المطبخ مع لوكاس.

سألها لوكاس:

ـ أجائعةٌ أنت؟

ـ لم أذق طعاماً منذ مساء أمس.

صبّ لوكاس الحساء في وعاء:

twitter @baghdad_library

ـ كُلي واذهبي للنّوم. سنتحدّث غداً. عليّ الانصرافُ الآن.

عادَ إلى الحوض، أخذ سمكتين وتوجّه صوب بيت الخوري.

أعدّ العشاء ككلّ مرّة، وأكل رفقة الخوري، ثمّ لعبا دورَ شطرنج. خسر لوكاس لأوّل مرّة.

غضب السيّد الخوري:

ـ ذهنُك مشوّش هذا المساء يا لوكاس، أنت ترتكب أخطاء فظيعةً. لنلعب دوراً آخرَ، وركّز هذه المرّة.

قال لوكاس:

ـ أنا متعبٌ. عليّ أن أعود إلى البيت.

ـ ستتسكّع بالحانات إذن؟

ـ لقد استخبرتَ جيّداً بشأني، سيّدي الخوري.

أجاب الخوري ضاحكاً:

ـ أقابل الكثير من العجائز. يخبرنني بكلّ ما يجري في المدينة. لا تتّخذ هذه السّحنة! هيّا، استمتع بوقتك جيّداً. إنّها ليلة الميلاد.

قام لوكاس قائلاً:

ـ أتمنّى لك سنةً سعيدة أبتِ.

قام الخوري بدوره، ووضع يده على رأس لوكاس:

ـ ليُباركك الرّب. ليَهبْ روحكَ السّلام.

قال لوكاس:

ـ لن تعرف روحي السّلام أبداً.

ـ تحلّ بالأمل، وصَلِّ يا بنيّ.

سار لوكاس بين الأزقّة. مرّ من أمام الحانات الضاجّة دون أن يتوقّف بها. حثّ خطاه، حتى إنّه ركض لمّا بلغ الطريق الصغيرة المفضية إلى بيت الجدّة.

فتح باب المطبخ. كانت ياسمين ما تزال جالسةً على المصطبة عند الزاوية، وقد أشرعت بابَ المطبخ وأخذت تحدّق في النّار. كان الوعاء المليء بالحساء البارد ما يزالُ على الطاولة.

جلس لوكاس قبالة ياسمين:

ـ لم تأكلي.

ـ لست جائعةً. ما زلت مقرورةً.

أخذ لوكاس قنينة ماء ـ حياة[١] من على الرّف، وصبّ منها في كأسين:

ـ اِشربي، ستدفئين من الدّاخل.

شربَ، وشربت ياسمين أيضاً، ثمّ صبّ مرّةً أخرى. شربا معاً صامتَين. تناهت إليهما من بعيدٍ أصواتُ المشرّدين في المدينة.

قال لوكاس:

ـ إنّه منتصف اللّيل. ستبدأ سنةٌ جديدة.

تركت ياسمين رأسها يهوي على الطاولة، وأجهشت باكيةً.

نهض لوكاس، نزع عن ياسمين الغطاء الذي كانت ما تزال متلفّعة به. داعبَ شعرها الأسود الطويلَ البرّاق. ثمّ داعب نهديها المنتفخين

---

(١) مشروب روحي يصنع أساساً من الحبوب أو الجذور أو الفواكه المقطّرة.

twitter @baghdad_library

بالحليب. فكّ أزرار قميصها، وانحنى على صدرها، ثمّ أخذ يرضع من حليبها.

صبيحة الغد، دخل لوكاس إلى المطبخ، كانت ياسمين جالسة على المصطبة وقد وضعت طفلها على حجرها.

قالت:

ـ ما أزال راغبةً في إغراق طفلي. بعد ذلك سأرحل.

ـ إلى أين ستذهبين؟

ـ لستُ أدري. لا أستطيع البقاء في هذه المدينة بعد الذي جرى.

سألها لوكاس:

ـ ما الذي حصل؟ أهوَ الطفلُ؟ ثمّة العديد من الأمّهات العازبات في المدينة. هل تبرّأ منك والداك؟

ـ ليس لي والدان. توفيت أمّي ساعةَ وضعي. كنت أعيش مع والدي وخالتي، أخت أمّي. خالتي هي من ربّاني. حين عاد والدي من الحرب تزوّجها. لكنّه لم يكن يحبّها. لم يكن يحبّ سوايَ.

قال لوكاس:

ـ فهمتُ.

ـ وحين انتبهت خالتي للأمر، أبلغت عنّا. والدي في السّجن. وأنا عملتُ منظّفةً في المستشفى حتّى وضعتُ طفلي. غادرت المستشفى هذا الصّباح، وحين طرقتُ باب منزلنا، لم تفتح لي خالتي البابَ. شتمتني من وراء الباب.

قال لها لوكاس:

ـ أعلم بقصّتك. يردّدونها في الحانات.

ـ أجل، الجميع يردّدونها. المدينة صغيرةٌ. لا أستطيع البقاء هنا. كنت أريد أن أغرق الطّفل، وأعبر الحدود بعد ذلك.

ـ لا أحد يستطيع عبور الحدود. ستقضين متفجّرة بِلغمٍ.

ـ الموت والحياة سيّانٌ.

ـ ما سنّك؟

ـ ثماني عشرة سنة.

ـ إنّها سنٌّ مبكّرةٌ للموت. تستطيعين بدء حياةٍ أخرى في مكان آخر. في مدينةٍ أخرى، حين يصير ابنك أكبر قليلاً. في انتظار ذلك تستطيعين البقاء هنا ما طابَ لك.

ـ ماذا عن سكّان المدينة!

ـ سكّان المدينة سيتوقّفون عن النميمة، ثمّ ينتهي بهم المطاف إلى الصّمت. لستِ مضطرةً للالتقاء بهم. هنا، أنت لست بالمدينة، أنت في بيتي.

ـ هل ستتركني أبقى هنا، رفقة طفلي؟

ـ تستطيعين الإقامة بهذه الغرفة، وتستطيعين استعمال المطبخ. لكن لا تأتي أبداً إلى غرفتي، ولا تصعدي إلى العليّة، كما لا ينبغي أن تطرحي البتّة أسئلةً.

قالت ياسمين:

ـ لن أطرح عليك أيّ سؤالٍ، ولن أزعجك. سأمنع طفلي أيضاً من إزعاجك. سأطبخ وأرتّب البيت. أنا أحسن القيام بكلّ شيء. في بيتنا، كنت أنا من يعتني بالمنزل، لأنّ خالتي تعمل بالمصنع.

twitter @baghdad_library

قال لوكاس:

ـ الماء بدأ يغلي. تستطيعين بدء الحمّام.

وضعت ياسمين طشتاً على الطاولة، ونزعت عن الطفل ثيابَه وخِرقَه. دفّأ لوكاس فوطة حمّامٍ فوق الموقد. أخذت ياسمين تغسل الطفل بينما لوكاس يراقبها.

قال:

ـ به عيبٌ على مستوى الكتفين.

ـ أجل. بساقيه أيضاً. أخبروني بذلك في المستشفى. إنّها غلطتي. كنت أشدّ بطني بعصّابةٍ بُغيَة إخفاء حملي. سينشأ معاقاً. فقط لو أنّي أوتيت الشّجاعةَ لإغراقه!

أخذ لوكاس الطّفل الملفوف في الثوب، بين يديه، وتأمّل الوجهَ الصّغير المتغضّن:

ـ لا ينبغي أن تتحدّثي عن هذا الأمر مرّة أخرى، يا ياسمين.

قالت:

ـ سيكون شقيّاً.

ـ أنت أيضاً شقيّة، مع أنّك لست معاقةً. لربّما لن يكون أكثر شقاءً منك، ولا من أيّ أحد آخر.

اِستعادت ياسمين الطّفلَ، وكانت عيناها مليئتين بالدّموع:

ـ أنت طيّبٌ يا لوكاس.

ـ أتعرفين اسمي؟

ـ الجميع بالمدينة يعرفونك. يقولون إنّك أحمقٌ، بيد أنّي لا أصدّق الأمرَ.

خرج لوكاس، ثمّ عادَ حاملاً ألواح خشب:

- سأصنع له مهداً.

نظّفت ياسمين الغسيل، وأعدّت الطعام. وحين صار المهد جاهزاً، وضعت الطفل فيه وأخذت تهدهده.

سألها لوكاس:

- ما اسمه؟ هل سمّيتِه؟

- أجل. في المستشفى يطلبون اسمه لتسجيله بالبلدية. أسميته ماتياس. هو اسمُ والدي. لم يخطر ببالي اسمٌ آخر.

- كنتِ تحبّينه إذن لهذه الدّرجة؟

- ما كان لي غيرُه.

مساءً عاد لوكاس من بيت الخوري دون أن يعرّج على الحانات. كانت النّار ما تزال متّقدة في المطبخ. وعبر الباب الموارب سمع ياسمين تغنّي بصوت خفيض. دخل إلى غرفة الجدّة، وكانت ياسمين بقميص النّوم، تهدهد الطّفل قربَ النّافذة. سألها لوكاس:

- لمَ ما تزالين مستيقظة؟

- أنتظرك.

- لا ينبغي أن تنتظريني. عادة ما أعود في وقت متأخّرٍ جداً.

اِبتسمت ياسمين:

- أعرف. أنت تعزف في الحانات.

اقترب لوكاس:

- هل نام؟

twitter @baghdad_library

ـ منذ مدّة طويلة. غير أنّي أجد لذّة في هدهدتِه.

قال لوكاس:

ـ تعالي إلى المطبخ. قد نوقظه.

جالسَين متقابلين، كانا يشربان ماء ـ الحياة صامتَين. لاحقاً سألها لوكاس:

ـ متى بدأ الأمر؟ أقصد، بينك وبين والدك؟

ـ فوراً. ما إن عاد من الحرب.

ـ كم كان سنّك ساعتها؟

ـ اِثنتا عشرة.

ـ اِغتصبك؟

أجابت ضاحكةً:

ـ أوه، كلاّ! لم يغتصبني. كان يرقد بجانبي فحسب. يضمّني إليه، يقبّلني، يداعبني، ويبكي.

ـ وأين كانت خالتك أثناء ذلك؟

ـ كانت تشتغل في الفَبْركة. تعمل بنظام الفِرَق. وحين يكون عليها الاشتغال ضمن فريق الليل، ينام أبي معي في سريري. كان سريراً ضيقاً في غرفة صغيرة بلا نافذة. كلانا كنّا سعيدَين على ذاك السّرير.

صبّ لوكاس من ماء ـ الحياة، ثمّ قال:

ـ واصلي!

ـ كنت أكبُر. وظلّ أبي يداعب نهديّ، ويقول: «قريباً ستصيرين امرأة، وسترحلين رفقة أحد الفتيان». فأردّ عليه: «كلاّ، لن أرحل أبداً». وذات يوم، أثناء رقادي، أخذتُ يدَه ووضعتها بين فخذيّ. ضغطت

أصابعه، وأحسست باللّذة لأوّل مرّة. وفي الليلة الموالية، كنت أنا من طلب منه أن يزيدني من تلك اللّذة النّاعمة. بكى، وقال إنّنا لا ينبغي أن نفعل ذلك، إنّه أمرٌ سيء. لكنّي ألَححت، لا بل توسّلت إليه. وحينئذ مال على فرجي، وأخذ يلعقه، ويمصّه ويقبّله. تعاظمت لذّتي أكثر من المرّة الأولى.

«وذات مساءٍ، اضطجع فوقي. وضع عضوه بين فخذيّ، وكان يقول لي ضمّي فخذيك بشدّة، لا تتركيه يدخل، لا أريد أن أؤذيك.

«لسنواتٍ ونحن نمارس الحبّ بتلك الطريقة، لكن أتت عليّ ليلةٌ لم أستطع أن أكبح فيها جماح شهوتي. كانت رغبتي فيه عظيمةً جداً، ففتحت فخذيّ، كنتُ مشرَعةً تماماً، ودخل هوَ فيَّ»

صمتت وأخذت تنظر إلى لوكاس. عيناها السّوداوان الكبيرتان كانتا تبرقان وانفرجت شفتاها الرّيانتان. أخرجت نهدها من قميصها، وسألته:

ـ أتريد؟

أمسكها لوكاس من شعرها، وجرّها إلى الغرفة ثمّ ألقى بها على سرير الجدّة، وواقَعَها وهو يعضّ رقبتها.

وفي الأيام اللاحقة، عاد لوكاس يطرق الحانات، واستعاد جولته بين أزقّة المدينة القفر.

وحين يعود إلى البيت، يقصدُ غرفتَه مباشرةً.

على أنّه، عاد ذات يومٍ ثملاً، ودخل إلى غرفة الجدّة. كان ضوء المطبخ ينير المكان. ياسمينُ والطّفل نائمين.

تعرّى لوكاس واندسّ في سرير ياسمين. جسدها لاهبٌ، بينما جسد لوكاس متجمّد. كانت موليةً وجهها للحائط، التصق بظهرها، ووضع قضيبه بين فلقَتيها.

twitter @baghdad_library

ضمّت فخذيها وغمغمت:

ـ أبي، آه يا أبي!

همس لوكاس في أذنها:

ـ شدّي، شدّي أكثر.

قاومت، أخذت تتنفّس بمشقّة، أولج قضيبه فيها، بكت.

وضع لوكاس يده على فم ياسمين، وجرّ اللحاف فوق رأسها:

ـ صه! ستوقظينَ الطّفل!

عضّت أصابعه، وأخذت تمصّ إبهامه.

حين قضيَ الأمر، ظلاّ راقدَين لدقائقَ، ثمّ قام لوكاس.

بكت ياسمين.

ذهب لوكاس إلى غرفته.

إنّه الصّيف، الطفلُ في كلّ مكان. في غرفة الجدّة، في المطبخ، في الحديقة، يتنقّل حبواً.

أحدب، شائه الشّكل. يدّق بقبضتيه الصّغيرتَين على باب الغرفة إلى أن يفتح له لوكاس. يرتقي السّرير الكبير.

يضع لوكاس أسطوانةً في الحاكي، ويرتمي الطفل على السّرير.

يضع لوكاس أسطوانةً أخرى، فيختبئ الطفل تحت الأغطية.

يتناول لوكاس ورقة، ويرسم عليها أرنباً، دجاجةً، خنزيراً، فيضحك الطّفل ويقبّل الورقة.

يرسم لوكاس زرافةً وفيلاً، فيهزّ الطّفل رأسه ويمزّق الورقة.

يجمع لوكاس ركاماً من الرّمل للطّفل، ويشتري له مجرفةً ومرشّ ماءٍ وعربة يدوية.

يشيّد له أرجوحة، ويصنع له سيارة بواسطة صندوقٍ وعجلات. يضع الطّفلَ في الصّندوق ويجول به. يريه الأسماك، ويدخله إلى قفص الأرانب، فيجلس الطّفل ويشرع في مداعبة الأرانب، لكنّ هذه الحيوانات تفرّ مذعورةً في كلّ اتّجاهٍ.

يبكي الطّفل.

يذهب لوكاس إلى المدينة ويشتري له دبدوباً.

ينظر الطّفل إلى الدّبدوب، يحمله، و«يكلّمه»، يهزّه، ثمّ يرمي به عند قدمَيْ لوكاس.

تحمل ياسمين الدبدوب، وتداعبه:

ـ ما ألطف هذا الدّب! إنّه دبدوب في غاية اللّطف.

ينظر الطّفل إلى أمّه، ثمّ يخبط رأسَه على أرضية المطبخ. تضع ياسمين الدبَّ، وتحمل الطّفلَ بين ذراعيها. الطّفل يصرخ، يضرب رأس أمّه، ويرفس بطنَها بقدمَيْه. ياسمين تتركه، فيختبئ تحت الطّاولة حتّى المساء.

وفي المساء أتى لوكاس بقطّ بريّ لم يَقضِ في شَرك جوزيف. واقفاً على أرضية المطبخ، كان القطّ يموء ويرتعد بكامل جسمه.

وضعت ياسمين إناء حليب أمام القط، وظلّ يموء.

وضعت ياسمين القطّ في مهد الطّفل.

يتسلّق الطّفل مهدَه، وينام بجانب القطّ، ثمّ يحضنه. ينتفض القطّ ويخدش وجه الطّفل ويدَيه.

twitter @baghdad_library

أياماً بعد ذلك، صار القطُّ يأكل كلّ ما يقدَّم له، وينام عند أقدام الطّفل.

طلب لوكاس من جوزيف أن يحضر له كلباً صغيراً.

وذات يوم، أتى جوزيف بجروٍ أسود، طويلُ الوبر أجعدُه. كانت ياسمين منشغلةً بوضع الغسيل على الحبل، بينما الطفل يقيّل. طرقت ياسمين باب لوكاس صائحةً:

ـ ثمّة أحد!

توارت في غرفة الجدّة.

اِستقبل لوكاس جوزيفَ. قال جوزيف:

ـ هوَذا الكلبُ الذي طلبته منّي. هو كلبٌ من فصيلة الرّاعي، أصله من السّهل الكبير. سيكون كلب حراسةٍ جيّداً.

قال لوكاس:

ـ أشكرك يا جوزيف. هيّا نشرب قدح نبيذ.

دخلا إلى المطبخ، وأخذا يشربان نبيذاً. سأله جوزيف:

ـ ألن تعرّفني على زوجتك؟

أجابه لوكاس:

ـ ياسمين ليست زوجتي. لم تكن تدري أين تذهب، فآويتها.

قال جوزيف:

ـ الجميع على علم بحكايتها. إنّها فتاة جميلة. الكلب الصّغير لابنِها على ما أحسِبُ.

ـ أجل إنّه لابن ياسمين.

وقبل أن يرحل، قال جوزيف للوكاس مرّة أخرى:

ـ مازلتَ صغيراً يا لوكاس، لست في السنّ التي تسمح بالتّكفّل بامرأة وابنها.

فأجابه لوكاس:

ـ ذاك شأني.

وعندما غادر جوزيف خرجت ياسمين من المنزل، وكان لوكاس يحمل الجرو بين يدَيه:

ـ انظري، ماذا أحضر جوزيف لماتياس.

قالت ياسمين:

ـ لقد رآني. ألم يعلّق على الأمر؟

ـ بلى. يراك جميلةً جداً. أنت مخطئة يا ياسمين، إذ تكترثين بما يمكن أن يفكّر به هؤلاء القوم تجاهنا. ينبغي أن ترافقيني ذات يوم إلى المدينة كي تشتري ثياباً. فأنت ترتدين الفستان نفسه منذ أتيت إلى هنا.

ـ حسبي هذا الفستان. لا أريد غيره. ولن أذهب إلى المدينة.

قال لوكاس:

ـ هيّا نُري ماتياس الكلبَ.

الطّفلُ تحت الطّاولة برفقة القطّ.

قالت ياسمين:

ـ ماتي. إنّه لك. هوَ هدية.

جلس لوكاس على أريكة الزّاوية حاملاً الكلبَ، وتسلّق الطّفلُ ركبَتيه. أخذ ينظر إلى الكلب، ثمّ شدّ الشعيرات التي تغطّي خطمَه. أخذ الكلب يلعق وجه الطّفل. نفخ القطّ في وجه الكلب، ثمّ هرب إلى الحديقة.

twitter @baghdad_library

قال لوكاس لياسمين: إنّ البرد يشتدّ أكثر فأكثر. ماتياس بحاجة إلى ملابس دافئة، وأنت أيضاً.

قالت ياسمين:

ـ إنّي أحسِن الحياكةَ. أحتاج فقط الصّوف وإبَر الحياكة.

اِشترى لوكاس سلّةً من كبّات الصّوف، وعدداً من إبر الحياكة ذات أحجامٍ مختلفة. حاكت ياسمين كنزاتٍ وجوارب وإيشاربات وقفّازات وقبّعاتٍ. وبما تبقّى من صوف نسجت أغطيةً متعدّدة الألوان. هنّأها لوكاس على عملها.

قالت ياسمين:

ـ أُحسنُ الخياطةَ كذلك. بمنزلنا، كانت لي آلة خياطة قديمة ورثتُها عن أمّي.

ـ أترغبين في أن أذهب لإحضارها.

ـ هل ستملك الشّجاعة لمواجهة خالتي؟

ذهب لوكاس يدفع العربةَ اليدويّة. طرق باب بيت خالة ياسمين. فتحت له امرأةٌ شابّة:

ـ ماذا تريد؟

ـ آتيت استعيدُ آلة خياطة ياسمين.

قالت:

ـ أُدخل.

دخل لوكاس إلى مطبخٍ شديد النّظافة. أخذت عمّة ياسمين تتفحّصه:

ـ هو أنت إذن، أيّها الولد المسكين. أنت ما تزال طفلاً.

قال لوكاس:

ـ أنا في السّابعة عشر من عمري.

ـ وهيَ ستبلغ التاسعة عشرة قريباً. كيف حالها؟

ـ بخير.

ـ والطّفل؟

ـ على أفضل ما يرام.

بعد برهة صمت، قالت:

ـ قيل لي إنّ الطّفل قد وُلد مشوّهاً. إنّه العقاب الإلهي.

سألها لوكاس:

ـ أين آلة الخياطة؟

فتحت الخالة باباً يفضي إلى غرفة ضيّقة لا نافذة بها:

ـ هنا كلّ أشيائها. خذها.

كان ثمّة آلة خياطة وصندوق مصنوع من السّعف.

سألها لوكاس:

ـ ألَمْ يكن هنا شيء آخر؟

ـ بلى. كان ثمّة سريرها. لكنّي أضرمت فيه النّارَ.

حمل لوكاس آلة الخياطة والصندوق على العربة. وقال:

ـ شكراً سيّدتي.

ـ لا داعي للشّكر. حظاً طيّباً.

السّماء تمطر أغلب الوقت. ياسمين تخيط وتحوك. لم يعد بإمكان

twitter @baghdad_library

الطّفل اللّعب في الخارج. يقضي سحابة يومه تحت طاولة المطبخ صحبةَ الكلب والقطّ.

صار الطّفل ينطق بعض الكلمات، إلا أنّه لم يبدأ المشي بعد. وعندما يحاول لوكاس جعله ينتصب ويمشي على قدَميه، ينتفض، ثمّ يفرّ على أربع، ويحتمي بالطّاولة.

ذهب لوكاس إلى المكتبة. اختار أوراقاً بيضاء كبيرة، وأقلاماً ملوّنة، وكتباً مصوَّرة.

سأله فيكتور:

ـ أعندَك طفلٌ بالمنزل؟

ـ أجل. لكنّه ليس ابني.

ـ ثمّة العديد من اليتامى. لقد سألني بيتر عن أخبارك. ينبغي أن تذهب لزيارته.

ـ أنا مشغول جداً.

ـ أتفهّم ذلك، مع تحمّلك مسؤولية طفلٍ وأنت في هذه السنّ.

عاد لوكاس إلى البيت. الطّفل نائمٌ على سجّادٍ تحت طاولة المطبخ. وبغرفة الجدّة، ياسمين منهمكة في الخياطة. وضع لوكاس العلبةَ بجانب الطّفل. دخل إلى الغرفة، وقبّل ياسمين على عنقها، ولم تتوقّف هي عن الخياطة.

الطّفل يرسم. يرسم كلباً وقطّاً. يرسمُ أيضاً حيواناتٍ أخرى. يرسم أشجارا وزهوراً، ويرسم المنزل. كما يرسم أمّه.

يسأله لوكاس:

ـ لمَ لا ترسمني أنا قطّ؟

يهزّ الطّفل رأسه ثمّ يختبئ مع كتبه تحت الطّاولة.

عشّية ليلة الميلاد، قطع لوكاس شجرة شوح في الغابة. واشترى كُراتٍ زجاجية ملوّنة، وشموعاً. وفي غرفة الجدّة قام بتزيين الشجرة بمساعدة ياسمين. وُضعت الهدايا أسفل الشّجرة: أقمشة وحذاء طويل دافئ لياسمين، سُترةٌ للوكاس، كتبٌ وحصانٌ هزّاز لماتياس.

شوت ياسمين بطّةً في الفرن. كما طهت البطاطس والملفوف والفاصوليا المجفّفة. وكانت قد أعدّت البسكويت قبل ذلك بأيّامٍ.

وما إن بزغت أولى النّجوم في السّماء حتى أوقد لوكاس الشموع على الشّجرة، ودخلت ياسمين إلى الغرفة حاملةً ماتياس بين ذراعيها.

قال لوكاس:

ـ تعالَ خُذ هداياك يا ماتياس. الكتبُ والحصان لك.

قال الطّفل:

ـ أريد الحصان. إنّ الحصان جميل.

حاول عبثاً امتطاءَ الحصان، فأخذ يبكي صائحاً:

ـ الحصانُ كبيرٌ جداً. لوكاس هو من صنعه. لوكاس شرير. صنع لماتي حصاناً كبيراً جداً.

أخذ الطفل يبكي ويضرب برأسه على أرضيّة الغرفة الخشبيّة. حمله لوكاس وهزّه قائلاً:

ـ الحصان ليس كبيراً جداً. لكنّ ماتياس صغير جداً، لأنّه لا يريد أن يقف على قدمَيه. دائماً يسعى على أربع، كالحيوانات! أنت لستَ حيواناً!

twitter @baghdad_library

أمسك ذقن الطّفل ليُجبره على النظر في عينيه. وقال له بصوت حازمٍ:

- إذا لم ترغب في المشي، فإنّك لن تتمكّن من المشي أبداً. أبداً. أفهمتَ؟

بدأ الطّفل يصرخ، فانتزعته ياسمين من بين يديه:

- دعهُ وشأنه! سيتمكّن من المشي قريباً.

وضعت الطّفل على ظهر الحصان، وأخذت تهدهده.

قال لوكاس:

- ينبغي أن أذهب. ضعي الطّفل في فراشه وانتظريني. لن أتأخّر.

قصد المطبخ، قطع البطّة المشويّة نصفَين، ثمّ وضع نصفاً في صحن ساخنٍ، ووضع حوله الخضر والبطاطس، ولفّ الصحن في ثوبٍ. وحين بلغ بيت الخوري، كان الطّعام ما يزال ساخناً.

بينما يأكلان، قال لوكاس:

- أنا آسفٌ أبتِ، عليّ العودة إلى المنزل، ثمّة من ينتظرني.

قال الخوري:

- أعلم ذلك بنيّ. وفي الواقع أنا مندهشٌ لأنّك أتيت هذا المساء. أعرف أنّك تعيش في الخطيئة مع امرأة خاطئة، ومع ثمرة علاقاتها الحرام. ذاك الطّفلُ لم يُعمَّد حتّى، على الرّغم من أنّه يحمل اسم أحد آبائنا الصّالحين.

صمت لوكاس، وواصل الخوري:

- تعاليا معاً إلى قُدّاس منتصف اللّيل، على الأقلّ هذه اللّيلة.

قال لوكاس:

ـ لا نستطيع ترك الطّفل بمفرده.

ـ تعالَ إذن وحدك، أنت.

ـ أنت تحدّثني بضمير المفرد أبتِ[1]

ـ عفوك يا لوكاس، لقد أخذتني حميّا الغضب. لكنّي تصرفت على هذا النّحو لأنّي أعتبرك مثل ابني الفعليّ، ولأنّني أرتجف من مصير روحك.

قال لوكاس:

ـ اِستمرَّ في مخاطبتي بضمير المفرد. الأمر يسعدني. لكنّك تعلم تمام العلم أنّي لا أذهب قطّ إلى الكنيسة.

عاد لوكاس إلى البيت. الأضواء كلّها مطفأة. القطّ والكلب ينامان بالمطبخ، نصف البطّة المشوية الموضوع على الطاولة لم يُمسَّ.

أراد لوكاس دخول الغرفة، لكنّ الباب كان مقفلاً بالمفتاح. طرق الباب، ولم تُجبه ياسمين.

قصد لوكاس المدينةَ. خلف النوافذ تتّقد الشّموعُ. الحانات مقفلة. هام لوكاس على وجهه طويلاً بين الأزقّة، ثمّ دخل إلى الكنيسة. كانت الكنيسة الكبيرة باردة، وشبه فارغة. اِتّكأ لوكاس على الحائط قربَ الباب. بعيداً، عند الطرف الآخر من الكنيسة يقيم الخوري القدّاس عند المذبح.

---

(١) - لضمير المخاطب في الفرنسية وجهان، وجه مفرد حميمي TOI، ثمّ ضمير الجمع VOUS ويستعمل لخلق مسافة معينة مع المخاطب، في السياقات الرسمية على سبيل المثال، وهذا الأخير هو الذي يستعمله القساوسة.

twitter @baghdad_library

مسّت يدٌ كتفَ لوكاس. قال بيتر:

ـ هيا بنا يا لوكاس. لنخرج من هنا.

حين صارا بالخارج سأله:

ـ ما الذي كنت تفعله هنا؟

ـ وأنت يا بيتر؟

ـ لقد تبعتُك. كنت خارجاً من بيت فيكتور، فلمحتك.

قال لوكاس:

ـ حين تغلق الحانات أشعر بأنّني ضائع في هذه المدينة.

ـ أمّا أنا فأشعر بأنّني ضائع في جميع الأحوال. هيا إلى بيتي لتستدفئ قبل أن تعود إلى بيتك.

يسكن بيتر بيتاً جميلاً في ساحة برانسيبال. ببيته أرائك عريضة، وتغطّي الأروقةَ رفوفٌ تملؤها الكتب. المكان دافئ. قدّم له بيتر ماء ـ الحياة.

ـ ما من صديق لي بهذه المدينة، باستثناء فيكتور الذي يعدّ شخصاً لطيفاً ومثقّفاً، لكنّه في الآن نفسه مُمِلٌّ. لا يكفّ عن الشكوى.

غفا لوكاس. وحين استيقظ فجراً كان بيتر ما يزال جالساً قبالته يتأمّله.

في الصيف التّالي، تمكّن الصبيّ من الوقوف على قدميه. متشبثاً بظهر الكلب كان يصيح:

ـ لوكاس! انظر! انظر!

يهرع لوكاس إليه، فيقول الصبيّ:

- ماتي أكبر من الكلب. ماتي واقف.

يبتعد الكلب، فيسقط الطّفل. يأخذ لوكاس بيده، ويحمله فوق كتفيه، ويقول:

- ماتياس أكبر من لوكاس.

يضحك الطّفل. في اليوم الموالي يشتري له لوكاس دراجة بثلاث عجلات.

قالت ياسمين للوكاس:

- إنّك تنفق الكثير من النقود في شراء اللُّعب.

قال لوكاس:

- ستساعد الدراجةُ ذات العجلات الثلاث قدمَيه على النمو.

وإذ حلّ الخريف، صار بمقدور الصبيّ السيّر ثابت الخطى. لكن بعرج واضح.

وذات صباح قال لوكاس لياسمين:

- بعد الغداء حمّمي الطّفلَ وألبسيه ملابس نظيفة. سأصطحبه إلى الطّبيب.

- إلى الطّبيب؟ لمَ؟

- ألا تَرين بأنّه يعرج؟

أجابته ياسمين:

- كونه يمشي أصلاً، يعَدّ معجزةً.

قال لوكاس:

twitter @baghdad_library

ـ أريده أن يمشي مثل الجميع.

فاضت عينا ياسمين بالدّموع:

ـ أنا أقبله كما هو.

وحين نُظِّف الصّبيّ وأُلبس، أخذه لوكاس من يده:

ـ سنذهب في جولة طويلة يا ماتياس، وحين تتعب، سأحملك.

سألته ياسمين:

ـ ستعبر المدينة برفقته حتّى المستشفى؟

ـ لمَ لا؟

ـ سينظر النّاس إليكم. وقد تلتقي خالتي.

لم يجبها لوكاس، فتابعت:

ـ إذا ما أرادوا أخذه منك، لن تتركهم يا لوكاس، أليس كذلك؟

أجابها لوكاس:

ـ يا له من سؤال!

وحين عاد من المستشفى، اكتفى لوكاس بالقول:

ـ كُنت محقّةً، يا ياسمين.

حبس نفسه في غرفته يستمع إلى الأسطوانات، وحين نقر الطفل على الباب لم يفتح له.

مساءً حين وضعت ياسمين الطّفل في فراشه، دخل لوكاس إلى غرفة الجدّة، وككلّ مساء جلس قرب المهد وحكى لماتياس حكاية. وحين فرغ من الحكي، قال:

ـ قريباً سيصير مهدك ضيّقاً. ينبغي أن أصنع لك سريراً.

قال الطّفل:

ـ سنحتفظ بالمهد للقطّ والكلب.

ـ أجل، سنحتفظ بالمهد. سأصنع لك أيضاً رفوفاً نضع عليها الكتب التي تملكها، والأخرى التي سأشتريها لك.

قال الصبيّ:

ـ إِحكي لي حكايةً أخرى.

ـ عليّ أن أذهب للعمل.

ـ لا يوجد عملٌ في اللّيل.

ـ بالنّسبة لي، ثمّة دائماً عمل. ينبغي أن أكسب الكثير من النّقود.

ـ وفيمَ تنفع النقود؟

ـ نشتري بها كلّ ما نحتاجه ثلاثتُنا.

ـ الملابس والأحذية؟

ـ أجل، وأيضاً اللُّعب والكتب والأسطوانات.

ـ اللُّعب والكتب جيّدة. هيّا اِذهب إلى العمل.

قال لوكاس:

ـ وأنت ينبغي أن تنام لتكبر.

قال الطّفل:

ـ لن أكبر، أنت تعلم ذلك. ذاك ما قاله الطّبيب.

ـ أنت لم تفهم ما قاله الطّبيب يا ماتياس. ستكبر. ستكون أقلّ حجماً

twitter @baghdad_library

من الآخرين، لكن أشدّ ذكاءً منهم. إنّ الحجم ليسَ ذا شأنٍ، ما يهمّ هو الذّكاء.

غادر لوكاس البيت. لكنّه بدلاً من أن يقصد المدينة نزل إلى النّهر، وجلس على العشب النديّ يراقب الماء الحالك الموحل.

٣

قال لوكاس لفيكتور:

ـ كتب الأطفال هذه تتشابه، والحكايا التي تتضمّنها غبيّة جداً. غير لائقة لطفل في سنّه الرّابعة.

هزّ فيكتور كتفيه:

ـ ماذا تريد؟ حتّى كتب البالغين يسري عليها الأمر نفسه. أنظر. ثمّة فقط بعض الرّوايات التي تمجّد النّظام. كأنّ بلادنا عُدِمَتْ الكتّابَ.

قال لوكاس:

ـ أجل، إنّي أعرف هذه الرّوايات. إنّها لا تساوي ثمن الورق الذي خُطّت فيه. أين كتب الماضي؟

ـ صارت ممنوعة. اختفت. تمّ سحبها من التّداول. قد تجد بعضها في الخزانة، إذا كانت ما تزال ثمّة خزانة.

ـ أَ هنالك خزانةُ كتب في مدينتنا؟ لم أسمع بها يوماً. أين تقع؟

ـ بالزّقاق الأوّل يميناً وأنت قادمٌ من ناحية القلعة. لا أستطيع تحديدَ اسم الزقاق لأنّه يتغيّر على الدّوام. لا يكفّون عن تغيير أسماء الأزقّة.

قال لوكاس:

ـ سأعثر عليها.

twitter @baghdad_library

كان الزّقاقُ الذي عيّنَه فيكتور خالياً. مكث لوكاس منتظراً. خرج مُسنٌّ من أحد البيوت. سأله لوكاس:

ـ أتعرف أين هي المكتبة؟

أشار المُسنّ إلى بيت رماديّ متداعٍ:

ـ إنّها هناك. لكنّها لن تظلّ هنا زمناً طويلاً. يبدو أنّهم راحلون. كلّ يوم تأتي شاحنة لتحمل كتباً.

دخل لوكاس إلى البيت الرّمادي. سار في رواقٍ معتم يفضي إلى باب زجاجيٍّ عليه لافتةٌ صدئة خُطَّ فيها: «الخزانة العمومية».

قرع لوكاس الباب، فأجابه صوت امرأة:

ـ تفضّل!

دلف لوكاس إلى غرفة فسيحة مُضاءةٍ بأشعّة الشّمس الغاربة. خلف المكتب تجلس امرأة ذات شعرٍ أشيَب. تضع نظارات. سألته:

ـ ماذا تريد؟

ـ أرغب في استعارة بعض الكتب.

نزعت المرأة نظّاراتها، ونظرت إلى لوكاس:

ـ تريد استعارة بعض الكتب؟ منذ أن بدأت العمل هنا، لم يأتِ أحد لاستعارة الكتب.

ـ تشتغلين هنا منذ زمن طويل؟

ـ منذ سنتين. أعمل على تنظيم هذا المكان. ينبغي أن أفرز الكتب، وأعزل تلك التي ينبغي إقصاؤها.

ـ وما الذي يحدث بعد ذلك؟ ما الذي يحدث لتلك الكتب؟

ـ أضعها في صناديق ويتمّ حملها وإتلافها.

ـ ثمّة الكثير من الكتب التي ينبغي إقصاؤها؟

ـ تقريباً كلّها.

نظر لوكاس إلى الصناديق المملوءة كتباً:

ـ يا له من عمل محزن.

سألته:

ـ أتحب الكتب؟

ـ لقد قرأت كلّ كتب السيّد الخوري. لديه الكثير من الكتب، لكنّها ليست كلّها مثيرةً للاهتمام.

اِبتسمت قائلةً:

ـ أتصوّر ذلك.

ـ قرأتُ أيضاً الكتب المتداولة في السّوق. هي أقلّ أهميّة من كتب الخوري.

اِبتسمت مرّة أخرى:

ـ أيّ الكتب تفضّل قراءتها؟

ـ الكتب التي ينبغي إقصاؤها.

أعادت وضع نظّاراتها وقالت:

ـ غير ممكن. أنا آسفة. اِرحل من هنا!

لم يتزحزح لوكاس من مكانه. فكرّرت قولها:

ـ قلت لك اِرحل.

قال لوكاس:

ـ أنت تشبهين أمّي.

twitter @baghdad_library

ـ آمُل أنّي أصغر منها سنّاً!

ـ كلاّ. أمّي كانت أصغر سنّاً حين توفيت.

قالت:

ـ سامحني. أنا آسفة.

ـ شعرُ أمّي كان ما يزال أسودَ حين ماتت. شعرك أشيب وتضعين نظارات.

قامت المرأة من مكتبها:

ـ إنّها الخامسة مساءً. عليّ إغلاق المكتبة.

عندما صارا بالخارج، قال لوكاس:

ـ سأرافقك. دعيني أحمل عنك الكيس. يبدو أنّه ثقيل.

سارا صامتَين. وحين بلغا المحطّة، توقّفت قرب منزل صغير واطئ:

ـ أنا أسكن هنا. ما اسمك؟

ـ لوكاس.

ـ شكراً يا لوكاس.

اِستعادت كيسها، وسألها لوكاس:

ـ ماذا يوجد بداخله؟

ـ فحم.

في ظهيرة اليوم الموالي، عاد لوكاس إلى الخزانة. كانت المرأة ذات الشّعر الأشيب، جالسة إلى مكتبها. قال لوكاس:

ـ نسيتِ أمس أن تعيريني كتاباً.

ـ لقد قلت لك إنّ الأمر غير ممكن.

تناول لوكاس كتاباً من أحد الصناديق الكبيرة:

- دعيني آخذ واحداً فقط. هذا الكتاب.

رفعت من صوتها:

- أنت لم تنظر حتّى إلى العنوان. أعد الكتاب إلى الصندوق، وانصرف!

أعاد لوكاس الكتابَ إلى الصندوق:

- لا تغضبي. لن آخذ أيّ كتاب. سأنتظر ساعة إغلاق الخزانة.

- لا تنتظر شيئاً! اخرج من هنا أيّها المستفزّ الحقير! ألا تخجل من القيام بهذه الأمور وأنت في هذه السنّ!

أخذت تشهق:

- متى ستتوقّفون عن التّجسس عليّ، وعن مراقبتي؟ إلى متى وأنا محلّ شبهات؟

خرج لوكاس من الخزانة، وجلس على سلم المنزل المقابل ينتظرها. بعد خمس ساعات تقريباً أتت باسمةً:

- آسفة، أنا خائفةٌ جداً. خائفةٌ طوال الوقت. خائفةٌ من الجميع.

قال لوكاس:

- لن أطلب منك كتباً بعد اليوم. لقد عدت فقط بسبب الشّبه الذي بينك وبين أمّي.

أخرج من جيبه صورةً:

- أُنظري.

نظرت إلى الصورة:

- لا أرى أيّ شبه. أمّك شابّةٌ، جميلةٌ، وأنيقة.

twitter @baghdad_library

ـ لماذا ترتدين أحذية ذات كعب واطئ، وهذا اللباس الغامق؟ لماذا تلبسين مثل امرأة عجوز؟

قالت:

ـ أنا في الخامسة والثلاثين من عمري.

ـ أمّي كانت في نفس سنّك حين توفيت. بوسعك على الأقلّ أن تصبغي شعرك.

ـ لقد شابَ شعري في ليلة واحدة. اللّيلة التي شنقُ«وا» فيها زوجي، بتهمة الخيانة العظمى. مضت ثلاث سنوات على ذلك.

مدّت كيسها إلى لوكاس:

ـ رافِقني.

أمام البيت سألها لوكاس:

ـ أَ أستطيع الدّخول؟

ـ لا أحد يدخل البتّة إلى منزلي.

ـ لمَ؟

ـ لا أعرف أحداً في هذه المدينة.

ـ صرت تعرفينني أنا الآن.

إبتسمت:

ـ حسناً، تفضّل يا لوكاس.

في المطبخ قال لوكاس:

ـ لا أعرف اسمك. لا أرغب في مناداتك بـ «مدام».

ـ اِسمي كلارا. تستطيع أن تحمل الكيس إلى الغرفة وتفرغه قرب المدفأة. سأعدّ شاياً.

أفرغ لوكاس كيس الفحم في صندوقٍ خشبيّ. قصَدَ النّافذةَ، ورأى خَلَلَها حديقةً مهملة، وفي البعيد قضبان سكّة حديد اجتاحتها النّباتات الوحشية.

دخلت كلارا إلى الغرفة:

ـ نسيتُ شراء السّكر.

وضعت الصينيّة على الطّاولة، واقتربت من لوكاس:

ـ الأجواء هادئة هنا، ما عادت القطارات تمرّ.

قال لوكاس:

ـ منزلٌ جميل.

ـ إنّه منزل وظيفة. كان في ملك أناسٍ تمّ ترحيلهم.

ـ والأثاث أيضاً؟

ـ أثاث هذه الغرفة، نعم. أمّا الغرفة الأخرى فتحوي ملابسي. سريري ومكتبي ومكتبتي.

سألها لوكاس:

ـ هل بوسعي رؤية غرفتك؟

ـ مرّة أخرى ربّما. تعال اشرب الشّايَ.

شرب لوكاس قليلاً من الشّاي المرّ، ثمّ قال:

ـ ينبغي أن أذهب، عندي شغل. لكنّي أستطيع أن أعود لاحقاً في وقت متأخّر.

قالت:

twitter @baghdad_library

ـ كلاّ، لا تعُد. أنام مبكّراً اقتصاداً للفحم.

حين وصل لوكاس إلى المنزل، كانت ياسمين وماتياس بالمطبخ. قالت ياسمين:

ـ رفض الطّفل النّوم قبل عودتك. لقد أطعمتُ الحيوانات وحلبت العنزات.

حكى لوكاس حكاية لماتياس، ثمّ عرّج على دار الخوري. وفي الأخير عاد إلى البيت الصّغير في شارع المحطّة. كانت الأضواء مطفأة.

ظلّ لوكاس منتظراً بالشّارع. خرجت كلارا من الخزانة. لم تكن تحمل كيساً. قالت:

ـ لن يبلغ بك الأمر حدّ انتظاري هنا كلّ يوم؟

ـ لمَ؟ أيزعجكِ الأمر؟

ـ أجل يزعجني. أنّه أمر سخيفٌ وبلا معنى.

قال لوكاس:

ـ أحبّ أن أرافقك.

ـ لا أحمل كيساً. ثمّ إنّي لن أعود إلى بيتي مباشرةً. عليّ التّبضع.

سألها لوكاس:

ـ أأستطيعُ المجيءَ عندك في وقت متأخّرِ من اللّيلة؟

ـ كلاّ!

ـ ما المانع؟ اليوم يوم جمعة. لن تعملي غداً. لستِ مجبرةً على النوم باكراً.

أجابته كلارا:

ـ كفى! حياتي لا تعنيك، ولا يعنيك في أيّ ساعةٍ أخلد للنّوم. كُفَّ عن انتظاري بالشّارع، وعن ملاحقتي كجَروٍ.

ـ لن أراك إذن حتّى يوم الاثنين؟

زفرت وهزّت رأسَها:

ـ لن تراني لا يوم الاثنين ولا يوماً آخرَ. كُفّ عن إزعاجي يا لوكاس، أرجوك. ما الذي تريده منّي؟

قال لوكاس:

ـ أستمتع برؤيتك. حتّى بملابسك العتيقة وشعرك الأشيب.

ـ أيّها الوقح!

دارت كلارا على عقِبيها وقصدت ساحةَ برانسيبال. تبعها لوكاس.

دخلت كلارا إلى محلّ حلويات، ثمّ إلى متجر أحذية. انتظرها لوكاس طويلاً. بعد ذلك عرّجت على البقّال. حين عادت أدراجها على طريق شارع المحطّة، كانت ذراعاها معا محمّلتان. لحق بها لوكاس:

ـ دعيني أساعدك.

ردّت كلارا دون أن تتوقّف:

ـ لا تكن لحوحاً! اِنصرف! ولا تعُد مرّةً أخرى.

ـ حسناً يا كلارا. لن تَرَيْني بعد الآن.

عاد لوكاس إلى البيت. قالت له ياسمين:

ـ لقد نام ماتياس.

ـ نام منذ الآن؟ لمَ؟

ـ أعتقد أنّه مستاء.

twitter @baghdad_library

دخل لوكاس إلى غرفة الجدّة:

ـ نمتَ يا ماتياس؟

لم يحر الطفل جواباً. غادر لوكاس الغرفة. سألته ياسمين:

ـ هل ستعود متأخّراً هذه اللّيلة؟

ـ إنّها الجمعة.

قالت:

ـ البستان والحيوانات تعود عليك بالمال الكثير. ينبغي أن تكفّ عن العزف في الحانات يا لوكاس. تلك القطع النقدية التي تكسبها هناك لا تستحقّ عناء قضاء اللّيل في الحانات.

لم يجبها لوكاس. قام بعمله المسائي ثمّ قصد بيت الخوري.

قال له الخوري:

ـ منذ مدّة طويلة لم نلعب الشطرنج.

أجابه لوكاس:

ـ أنا مشغول جداً هذه الأيام.

قصَدَ المدينةَ، ودخل إلى حانة، وعزف على الهارمونيكا، وشرب. شرب في كلّ حانات المدينة، ثمّ ذهب إلى بيت كلارا.

من نوافذ المطبخ يتسلّل الضوء خلَل الستائر المسدلة. لفّ لوكاس حول صفّ البنايات، وعاد من ناحية قضبان السكّة الحديد، ودلف إلى حديقة كلارا. هناك كانت الستائر أقلّ سمكاً، واستطاع لوكاس أن يتبيّن، في الغرفة التي كان فيها أمس، شبح شخصين. كان ثمّة رجل يتحرّك جيئة وذهاباً داخل الغرفة، بينما كلارا مستندة إلى المدفأة. الرجل يدنو

منها، ثمّ يبتعد، ثمّ يعاود الدنوّ مجدّداً. يتكلّم. لوكاس يسمع صوته لكنه لا يستبين ما يقوله.

يتماهى الشّبحان. يستمرّ الأمر طويلاً. يفترقان. يضيء النّور في غرفة النّوم. لم يعد ثمّة أحدٌ في الصالون.

حين انتقل لوكاس إلى النّافذة الأخرى، كان الضوء قد انطفأ.

عاد لوكاس إلى واجهة المنزل. توارى في الظّلام ومكث منتظراً.

ما إن بزغ الصّبح، خرج رجلٌ من بيت كلارا وابتعد مسرعاً. تبعه لوكاس. دخل الرّجل أحد البيوت في ساحة برانسيبال.

لدى عودته، دخل لوكاس إلى المطبخ ليشرب ماءً. خرجت ياسمين من غرفة الجدّة:

ـ لقد انتظرتك اللّيلَ بأكمله. إنّها السادسة صباحاً. أين كنت؟

ـ في الشّارع.

ـ ما الخطب يا لوكاس؟

مدّت يدها لتداعب وجهه. أبعد لوكاس اليد وغادر المطبخ، ليغلق على نفسه في غرفته.

مساء السّبت، تنقّل لوكاس بين الحانات. كان الزّبائن ثملين وأسخياء.

وفجأة، خلَل دخان السّجائر، *لمحها*. كانت جالسةً، وحيدةً، على مقربة من المدخل، تشرب نبيذاً أحمر. جلس لوكاس إلى طاولتها:

ـ كلارا! ماذا تفعلين هنا؟

ـ لم أستطع النّوم. رغبت في رؤية النّاس.

twitter @baghdad_library

ـ هؤلاء؟

ـ أيّاً كان. ما عدت قادرة على البقاء وحدي في المنزل. دائماً وحيدة.

ـ أمس مساءً، لم تكوني وحدك.

لم تُجب كلارا. صبّت كأس نبيذ، وشربت. اِنتزع لوكاس الكأس من يدها:

ـ يكفي!

ضحكت:

ـ كلاّ! لا نبلغ كفايتنا قطّ! أريد أن أشرب، أكثر فأكثر.

ـ ليس هنا! ليس أمام هؤلاء!

شدّ لوكاس على معصم كلارا. نظرت إليه وقالت هامسةً:

ـ كنت أبحث عنك.

قال لوكاس:

ـ لم تكوني راغبة في رؤيتي بعدُ.

لم تُجبهُ، وأشاحت برأسها.

طالب الزبائن بالموسيقى.

رمى لوكاس بقطع نقديّة على الطّاولة:

ـ تعالي!

أمسك بذراع كلارا وقادها إلى الباب.

رافقتهما الضّحكات والتعليقات البذيئة.

كانت السّماء تمطر بالخارج. كلارا تمشي مترنّحة، وتنزلق بسبب كعبها العالي. لوكاس مضطرٌّ تقريباً لحملها.

وإذ صارت في غرفتها، ارتمت على السّرير، كانت ترتجف. نزع لوكاس حذاءها، وغطّاها. قصَدَ الغرفة الأخرى، وأوقد النّار في المدفأة التي كانت تدفئ الغرفتَين معاً. أعدَّ شاياً في المطبخ، وحمل فنجانَيْن. قالت كلارا:

ـ ثمّة قنينة رُم بدولاب المطبخ.

أحضر لوكاس قنينة الرُّم وصبّ منها في الفنجانَيْن.

قالت كلارا:

ـ ما تزال صغيراً على شرب الكحول.

قال لوكاس:

ـ عمري عشرون سنةً. بدأت الشّربَ في سنّ الثانية عشرة.

أغلقت كلارا عينَيْها:

ـ كان من الممكن أن أكون أمّك.

وبعد برهةٍ، أضافت:

ـ اِبقَ هنا. لا تتركني وحدي.

جلس لوكاس على كرسيّ المكتب، وبدأ يتأمّل الغرفة. عدا السّرير، لم يكن هناك سوى المكتب، ورفوف صغيرة عليها بعض الكتب. تفحّص الكتب. كانت غير ذات شأن، وكان يعرفها كلّها.

كلارا نائمة. إحدى ذراعيها تتدلى خارج السّرير. أمسك لوكاس بالذراع. قبّل ظاهر اليد، ثمّ باطنها. ثمّ لحسها، صاعداً بلسانه حتّى المرفق. لم تندّ عن كلارا أيّ حركة.

وكان الجوّ قد صار دافئاً. أزاح الغطاء عنها. جسدها أمامه، أبيض في أسود.

twitter @baghdad_library

بينما كان لوكاس في المطبخ نزعت كلارا التنّورة والبولوفر. وها هو الآن ينزع جواربها التّحتيةَ السّوداء، وحمّالات جواربها السّوداء، وحمّالة الصّدر السّوداء. أعاد سحب الغطاء فوق بياض جسدها، ثمّ أحرق ملابسها الدّاخلية في المدفأة بالغرفة الأخرى. حمل أريكةً إلى غرفة النّوم، واتّخذ مجلسَه قرب السّرير. لمح كتاباً ملقىً على الأرض. نظر فيه. هو كتابٌ قديمٌ بالٍ، وعلى صفحة العنوان ختمُ الخزانة. أخذ لوكاس يقرأ، ومرّت السّاعات.

بدأت كلارا تئنُّ. ظلّت عيناها مقفلتَين بينما يغمر وجهَها العرقُ، ورأسها يتحرّك يمنةً ويسرةً على الوسادة، وتهمس كلماتٍ لا تبين.

قصَد لوكاس المطبخ، بلّل خرقةً، ووضعها على جبين كلارا. صارت الكلمات الغير مفهومة صراخاً.

هزّها لوكاس لإيقاظها. فتحت عينيها:

- في درج مكتبي. مهدّئات. علبةٌ بيضاء.

وجد لوكاس المهدّئات، وبلعت كلارا قرصَين مع جرعةٍ من الشّاي البارد. وقالت:

- الأمر بسيط. فقط يعاودني الكابوس نفسه.

أغلقت عينها. وحين انتظم تنفّسها، رحل لوكاس. أخذ الكتاب معه.

مشى الهوينى طويلاً تحت المطر عبرَ الطرقات الخالية، حتى بلغ منزل الجدّة، في الطّرف الآخر من المدينة.

زوالَ يوم الأحد، عاد لوكاس إلى بيت كلارا. طرق باب المطبخ.

سألت كلارا:

ـ من هناك؟

ـ إنّه أنا، لوكاس.

فتحت كلارا الباب. كانت شاحبةً، ترتدي روباً أحمرَ بالياً.

ـ ماذا تريد؟

أجابها لوكاس:

ـ كنتُ ماراً من هنا، وقلت أسأل عن أحوالك.

ـ أشعر أنّي بأفضل حالٍ.

أخذت يدُها الممسكةُ بالباب ترتعد.

قال لوكاس:

ـ آسف، لقد كنت خائفاً.

ـ خائفاً ممّ؟ ليس ثمّة من سبب للخوف عليّ.

قال لوكاس بصوت خفيض:

ـ كلارا، أرجوك، دعيني أدخل.

هوّت رأسها، ثمّ قالت:

ـ لقد أوتِيتَ موهبةَ الإلحاح يا لوكاس، أدخل إذن لتشرب فنجان قهوة.

جلسا بالمطبخ يشربان قهوة.

سألته كلارا:

ـ ما الذي حدث مساءَ أمس؟

ـ ألا تذكرين؟

twitter @baghdad_library

ـ كلاّ، فأنا أتابع علاجاً منذ وفاة زوجي. الأدوية التي أتناولها تؤثّر أحياناً سلباً على ذاكرتي.

قال لوكاس:

ـ لقد أعدتك إلى البيت من الحانة. إذا ما كنت تتناولين دواءً، فينبغي أن تمتنعي عن شرب الكحول.

أخفت وجهها بين يديها:

ـ ليس بمقدورك أن تتخيّل ما عشتُه.

قال لوكاس:

ـ لقد خَبِرْتُ آلامَ الفراق.

ـ تقصد موت أمّك.

ـ أقصد شيئاً آخر. رحيل أخٍ، كنت وإيّاهُ شخصاً واحداً.

رفعت كلارا رأسها، وأخذت تنظر إلى لوكاس:

ـ نحن أيضاً. أنا وتوماس، ما كنّا سوى شخصٍ واحد: «هم» قتلوه. هل قتلوا أخاك أيضاً؟

ـ كلاّ. لقد رحل. عبرَ الحدود.

ـ لمَ لم تَرحَل معه؟

ـ كان يلزم أن يبقى أحدنا هنا للعناية بالحيوانات، والبستان وبيت الجدّة. وكان يلزمنا أيضاً أن نتعلم كيف نعيش، كلّ على حدة.

وضعت كلارا يدها على يد لوكاس:

ـ ما كان اسمه؟

ـ كلاوس.

ـ سيعود. أمّا توماس، فلن يعود أبداً.

قام لوكاس:

ـ أترغبين في أن أوقد النّار في الغرفة؟ يداك متجمّدتان.

أجابت كلارا:

ـ هذا لطفٌ منك. سأعدّ فطائرَ، لم آكل بعد شيئاً.

نظّف لوكاس المدفأة. لم يعد ثمّة من أثر للملابس السوداء. أوقد النّار وعاد إلى المطبخ:

ـ لم يعد هنالك فحم. قالت كلارا:

ـ سأحضره من القبو.

حملت دلوَ صفيح، فقال لوكاس:

ـ دعيني أحضره أنا.

ـ كلاّ! المكان مظلم، وأنا معتادة عليه.

جلس لوكاس على أريكة الصالون، أخرج من جيبه الكتاب الذي كان قد أخذه من بيت كلارا، وأخذ يقرأ.

أحضرت كلارا الفطائر.

سألها لوكاس:

ـ من هو عشيقك؟

ـ كنت تتجسّس عليّ؟

أجابها:

ـ لأجله اشتريتِ تلك الملابس التحتيّة السّوداء، ولأجله انتعلتِ الحذاء ذا الكعب العالي. كان عليك أن تصبغي شعرك أيضاً.

twitter @baghdad_library

قالت كلارا:

ـ هذا ليس شأنك. ماذا تقرأ؟

مدّ لها لوكاس الكتاب:

ـ لقد استعرته منك أمس. أعجبني كثيراً.

ـ ليس لك الحقّ في أخذه معك. عليّ إعادته إلى الخزانة.

قال لوكاس:

ـ لا تغضبي يا كلارا. أستسمحكِ.

أشاحت بوجهها:

ـ وملابسي التحتية؟ هل استعرتها هي أيضاً؟

ـ كلاّ، لقد أحرقتها.

ـ أحرقتها؟ بأيّ حقّ تفعل ذلك؟

نهض لوكاس:

ـ أعتقد أنّ من الأفضل لي أن أرحل.

ـ أجل، ارحل. ثمّة من ينتظرك.

ـ من تقصدين؟

ـ إمرأة وطفلٌ، بحسب ما يُقال.

ـ ياسمين ليست امرأتي.

ـ هي وطفلها يعيشان ببيتك منذ أربع سنواتٍ.

ـ الطفل ليس ابني، لكنّه صار الآن لي.

يوم الاثنين انتظر لوكاس أمام الخزانة. حلّ المساء، ولم تأتِ كلارا.

دخل لوكاس إلى البيت الرّماديّ العتيق، وسار في الرّواق الطويل، ثمّ نقر على الباب الزّجاجيّ. لم يأته جوابٌ. الباب مقفلٌ بالمفتاح.

ركض لوكاس حتّى بيت كلارا. ودون أن يطرق البابَ دخل إلى المطبخ، ثمّ إلى الصّالون. كان باب غرفة النّوم مواربًا. نادى لوكاس:

ـ كلارا؟

ـ تعالَ يا لوكاس.

دخل لوكاس إلى الغرفة. كانت كلارا راقدةً على السّرير. جلس لوكاس على طرف السّرير، أمسك يد كلارا، وألفاها ملتهبةً. جسّ جبينها:

ـ سأستدعي طبيباً.

ـ كلاّ، لا داعي لذلك. إنّها فقط نزلة برد. رأسي وحلقي يؤلمانني، وهذا كلّ ما في الأمر.

ـ ألديكِ أدوية ضدّ الآلام والحمّى؟

ـ كلاّ، ليس لديّ شيءٌ. سنرى هذا الأمر غداً. أوقد النّار فقط، وحضر الشّاي.

بينما تشرب الشّاي، قالت:

ـ شكراً لأنك أتيت يا لوكاس.

ـ كنتِ تعلمين علم اليّقين أنّني سأعود.

ـ كنت أرجو ذلك. فظيع أن يمرض المرء حين يكون وحيداً.

قال لوكاس:

ـ لن تكوني وحيدةً بعد الآن يا كلارا.

شدّت كلارا كفّ لوكاس لصق وجنتها:

twitter @baghdad_library

ـ كنتُ فظّةً معك.

ـ لقد عاملتني كالكلب. لكن لا أهميّة لذلك.

داعب شعرَ كلارا المبلّل بالعرق:

ـ حاولي أن تنامي. سأحضر الأدوية وأعود.

ـ لا ريب في أنّ الصيدلية مقفلة الآن.

ـ سأجعلهم يفتحون.

ركض لوكاس حتّى ساحة برانسيبال، ورنّ على الصيدلية الوحيدة بالمدينة. رنّ مراراً، إلى أن فُتحت نافذة في الباب الخشبيّ، وسأله الصيدليّ:

ـ ماذا تريد؟

ـ أدوية ضدّ الحمّى والآلام. الأمر مستعجلٌ.

ـ هل لديك وصفة طبيّة؟

ـ كلاّ، لم أجد الوقت لاستشارة الطّبيب.

ـ لا عجب في ذلك. المشكلة أنّ الأدوية بلا وصفة غالية جداً.

ـ لا يهمّ.

أخرج لوكاس من جيبه ورقة نقديّة، بينما حمل الصيدليّ أنبوب عقار.

ركض لوكاس حتّى بيت الجدّة. كانت ياسمين والطّفل بالمطبخ. قالت ياسمين:

ـ لقد اعتنيت بالحيوانات.

ـ شكراً يا ياسمين. أتستطيعين أخذ الطّعام للسيّد الخوري هذا المساء؟ أنا مستعجل.

قالت ياسمين:

ـ لا أعرف السيّد الخوري، ولا أرغب في مقابلته.

ـ ليس عليك سوى أن تضعي الطّبق على الطّاولة بالمطبخ.

صمتت ياسمين، وظلّت تنظر إلى لوكاس. اِستدار لوكاس شطر ماتياس:

ـ هذا المساء، ياسمين هي من سيحكي لك حكايةً.

قال الطّفل:

ـ ياسمين لا تعرف كيف تحكي الحكايات.

ـ أنت إذن من سيحكي لها حكايةً. وسترسم لي رسماً جميلاً.

ـ أجل، رسماً جميلاً.

عاد لوكاس إلى بيت كلارا. أذاب قرصَيْن من الدَّواء في كأس ماء، ثمّ حملها إلى كلارا.

ـ اِشربي.

نفّذت كلارا الأمر. ولم يمض وقت طويلٌ حتّى نامت.

نزل لوكاس إلى القبو حاملاً مصباحَ الجيب. في زاوية من القبو كانت ثمّة كومةُ فحم صغيرة، وبعض الأكياس المرصوصة لصق الجدران. بعضها كانَ مفتوحاً، وبعضها الآخر مقفلاً بخيوط. قلّب لوكاس أحد الأكياس، وكان مليئاً بالبطاطس. فتح كيساً آخرَ، وكان مليئاً بقوالب الفحم. أفرغ الكيس على الأرض، كان فيه أربع أو خمس قوالب، وحوالي عشرين كتاباً.

اِختار لوكاس من بينها كتاباً، وأعاد البقيّة إلى الكيس. صعد حاملاً الكتاب ودلو الفحم.

twitter @baghdad_library

جلس بجانب سرير كلارا يقرأ.

صباحاً سألته كلارا:

ـ ظللتَ هنا اللّيل بأكمله؟

ـ أجل، لقد نمتُ جيّداً.

أعدّ الشّاي وأعطى كلارا أدويَتها، ثمّ أوقد النّار. قاست كلارا حرارة جسمها، وكانت ما تزال محمومة.

قال لوكاس:

ـ ابقي بالسّرير. سأعود حوالي منتصف الظهيرة. ما الذي ترغبين في تناوله؟

قالت:

ـ لستُ جائعةً. لكن، هل بوسعي أن أطلب منك أن تمرّ على مكتب البلديّة، وتخبرهم بمرضي؟

ـ سأفعل. لا تقلقي.

مرّ لوكاس على مكتب البلديّة، ثمّ عاد إلى بيته، قتلَ دجاجةً، وطبخها مع الخضر. وعند الزّوال، حمل الطّبيخ إلى بيت كلارا. أكلت منه قليلاً.

قال لوكاس:

ـ لقد نزلت أمس إلى القبو بحثاً عن الفحم. رأيت الكتب. أنت تنقلينها إلى قبو بيتك، أليس كذلك؟

قالت:

ـ أجل. لا أستطيع تقبّل أنّ«هم» سيعدمونها كلّها.

ـ أتسمحين لي بقراءتها؟

ـ اِقرأ ما يحلو لك منها. لكن كن حذراً، فقد يكلّفني الأمر النّفي.

ـ أعلم ذلك.

عند نهاية الظّهيرة تقريباً، عاد لوكاس إلى بيته. لم يكن ثمّة شيء ينبغي القيام به في البستان أثناءَ هذه الفترة من السّنة. اِعتنى لوكاس بالحيوانات، ثمّ دخل إلى غرفته ينصت إلى أسطوانات الموسيقى. طرق الطّفلُ البابَ. سمح له لوكاس بالدّخول.

جلس الطّفل على السّرير الكبير، وسأل لوكاس:

ـ لمَ ياسمين تبكي؟

ـ أتبكي؟

ـ أجل. تكاد تبكي طيلة الوقت. لمَ؟

ـ ألم تُخبرك لمَ تبكي؟

ـ أخاف أن أسألها.

اِستدار لوكاس لكي يبدّل الأسطوانة:

ـ لا شكّ في أنّها تبكي على والدها المحبوس في السّجن.

ـ ما هو السّجن؟

ـ هو منزل كبيرٌ نوافذه من قضبان حديديّة. ونحبس به النّاس.

ـ لمَ؟

ـ لأسبابَ عديدة. يتمّ حبسهم بدعوى أنّهم أناسٌ خطِرون. أبي أيضاً كان سجيناً.

رفع الطّفل عينيه السّوداوين الكبيرين نحو لوكاس:

twitter @baghdad_library

ـ أنت أيضاً يمكن أن تُحبَس؟

ـ أجل، أنا أيضاً.

كشّر الطّفلُ، وبدأ ذقنه الصّغير يرتعد:

ـ وأنا؟

حمله لوكاس فوق ركبَتَيه وقبّلَه:

ـ كلاّ، أنت لن تسجن. الأطفالُ لا يحبسون.

ـ لكن حين سأصير كبيراً.

قال لوكاس:

ـ إلى ذلك الحين، ستكون الظروف قد تغيّرت، ولن يُحبس أحد.

صمت الطّفلُ لحظةً ثمّ سأل:

ـ أولئك المحبوسون، ألن يخرجوا من السّجن ذات يوم؟

أجابه لوكاس:

ـ ذات يومٍ سيخرجون.

ـ سيخرج والد ياسمين أيضاً؟

ـ أجل، بالطّبع.

ـ ولن تبكيَ بعد ذلك؟

ـ كلاّ، لن تبكيَ بعد ذلك.

ـ وأبوك، هل سيخرج أيضاً؟

ـ لقد خرج منذ مدّة.

ـ أين هو؟

ـ لقد مات، أصابَه حادثٌ.

ـ لو أنّه لم يخرج من السّجن، لما أصابَه الحادثُ.

قال لوكاس:

ـ عليّ الرّحيل الآن. عُد إلى المطبخ، ولا تحدّث ياسمين عن والِدها. ستبكي أكثر. كن طيّباً ومطيعاً لها.

واقفةً عند عتبة المطبخ، سألته ياسمين:

ـ هل ستذهبُ يا لوكاس؟

تحرّك لوكاس صوب باب الحديقة، دون أن ينبس بجوابٍ.

قالت ياسمين:

ـ أردت فقط أن أعرف إذا ما كان عليّ أن أحمل، مرّةً أخرى، الطّعام بنفسي إلى السيّد الخوري.

أجابها لوكاس دون أن يستدير شطرَها:

ـ أرجوك يا ياسمين، افعلي. ليس لديّ وقتٌ.

قضى لوكاس أيّامه بقرب كلارا، حتّى يوم الجمعة.

وصباح الجمعة قالت له كلارا:

ـ أنا أفضل حالاً. سأستأنف عملي يومَ الاثنين. لستَ مضطرّاً لقضاء لياليك بقربي. لقد منحتني الكثير من وقتك.

ـ ما الذي تقصدينه يا كلارا؟

ـ أريد أن أبقى وحدي هذا المساء.

ـ «هوَ» عائدٌ! هكذا إذن؟

أخفضت عينَيْها دون أن تجيب. فتابع لوكاس:

ـ لا تستطيعين أن تفعلي بي هذا!

twitter @baghdad_library

نظرت كلارا في عينَي لوكاس:

ـ لقد عاتبتَني على تصّرفي كامرأة عجوز. أنت محقّ. أنا ما أزال شابّةً.

سألها لوكاس:

ـ من هو؟ لمَ لا يأتي سوى يوم الجمعة؟ لمَ لا يتزوّجك؟

ـ هوَ متزوّجٌ.

أجهشت كلارا. سألها لوكاس:

ـ لمَ تبكين؟ الأحرى أن أبكي أنا.

مساءً، عاد لوكاس إلى الحانات. وبعد إغلاقها، تسكّع في الأزقّة. كان الثلج يتساقط. توقّف لوكاس أمام منزل بيتر. كانت النّوافذ مظلمةً. رنّ لوكاس الجرس، ولم يجبه أحد. رنّ مرّةً أخرى. فُتحت نافذةٌ، وتساءلَ بيتر:

ـ من هناك؟

ـ إنّه أنا، لوكاس.

ـ اِنتظر يا لوكاس. أنا قادم.

اِنغلقت النّافذة، وما لبث الباب أن انفتح. قال بيتر:

ـ أُدخل، أيّها الرّوح الهائمة.

كان بيتر يرتدي روب النّوم. قال لوكاس:

ـ لقد أيقظتك. أنا آسفٌ.

ـ لا مشكلة. اِجلس.

جلس لوكاس على أريكةٍ من الجلد:

ـ لا أرغب في أن أعود إلى بيتي في هذا الجوّ البارد. بيتي بعيدٌ، وقد أثقلت في الشّرب. هل أستطيع النّوم عندك؟

ـ بالطّبع يا لوكاس. نَم على سريري، وسأنام على هذه الأريكة.

ـ أفضّل النّوم على هذه الأريكة. هكذا سيكون بوسعي الرّحيل حال استيقاظي، دون أن أزعجك.

ـ كما تريد يا لوكاس. اِرتَح. سآتيك بغطاء.

نزع لوكاس سترته وحذاءه الطّويل، ورقد على الأريكة. عاد لوكاس بغطاءٍ سميك. غطّى لوكاس، ووضع تحت رأسه وثاراً، ثمّ جلس على الأريكة بقربِه:

ـ ما الخطب يا لوكاس؟ هل ياسمين هي السّبب؟

هزّ لوكاس رأسه:

ـ كلّ شيء على ما يرام بالبيت. رغبتُ فقط في رؤيتِك.

قال بيتر:

ـ لا أصدّقك يا لوكاس.

أخذ لوكاس يد بيتر ووضعها على أسفل بطنه. سحب بيتر يده، وقام:

ـ كلاّ يا لوكاس، لا تدخل هذا العالم، عالمي.

ذهب إلى غرفته وأغلق الباب خلفه.

لبث لوكاس منتظراً. وبعد ذلك بساعات، نهض، وفتح بهدوء باب الغرفة، واقترب من سرير بيتر. بيتر نائم. غادر لوكاس الغرفة، وأغلق الباب خلفه، انتعل حذاءَه، وحمل سترتَه، تأكّد من وجود «أسلحته»

twitter @baghdad_library

داخل جيبه، وغادر المنزل دون ضجيج. قصَد شارع المحطّة، ولبث منتظراً قبالة منزل كلارا.

خرج من المنزل رجلٌ، تبعه لوكاس، ثمّ جاوزَه على الرّصيف الآخر. كي يصل إلى بيته كان على الرّجل أن يعبر حديقةً صغيرةً. وهناك، في تلك الحديقة، توارى لوكاس خلف دغل. لفّ على رأسه الإيشارب الأحمر الذي حاكته ياسمين، وحين وصل الرّجل، هبّ واقفاً أمامه. إستطاع التّعرف عليه. لقد كان أحد أطبّاء المستشفى الذين فحصوا ماتياس.

قال الطّبيب:

ـ من أنت؟ ماذا تريد؟

أمسك لوكاس الرّجل من ياقة معطفه، وأخرج موسى من جيبه:

ـ إذا عدت إلى بيتها مرّة أخرى سأذبحك.

ـ أنت مجنون! أنا عائدٌ من المستشفى حيث كنت أقوم بالدّوام اللّيلي.

ـ لا فائدة من الكذب. أنا لا أمزح. أستطيع فعل أيّ شيء. ما فعلته اليوم مجرّد تحذير.

ومن جيب سترته أخرج لوكاس جورباً مليئاً بالحصى، وهوى به على رأس الرّجل الذي سقط دون حراكٍ على الأرض المتجمّدة.

عاد لوكاس إلى بيت بيتر، استلقى على الأريكة ونام. أيقظه لوكاس في السّابعة صباحاً حاملاً له قهوة:

ـ لقد أتيت لرؤيتك ليلاً. ظننتك قد عُدت إلى بيتك.

قال لوكاس:

ـ لم أتحرّك من هنا اللّيلة بأكملها. الأمر هامٌّ يا بيتر.

نظر إليه بيتر مطوّلاً:

ـ حسناً يا لوكاس.

عاد لوكاس إلى بيته. قالت له ياسمين:

ـ أتى شرطيٌّ يسأل عنك. عليك المثول في مخفر الشّرطة. ما الخطب يا لوكاس؟

قال ماتياس:

ـ سيحبسون لوكاس في السّجن. ولن يعود لوكاس مرّة أخرى.

أخذ الطّفل يضحك هازئاً. أمسكته ياسمين من ذراعه وصفعته:

ـ أصمت.

اِنتزع لوكاس الطّفلَ من ياسمين، وضمّه إليه، ثمّ مسح الدّموع التي كانت تسيل على وجهه:

ـ لا تخف يا ماتياس، لن يحبسوني.

غرزَ الطّفل عينيه في عينَي لوكاس. توقّفَ عن البكاء. وقال:

ـ مؤسف!

ذهب لوكاس إلى مخفر الشّرطة. وجّهوه إلى مكتب الضّابط. كانت كلارا والطّبيب جالسَين مقابلَ رجل الشّرطة.

قال الضابط:

ـ صباح الخير يا لوكاس. اِجلس.

twitter @baghdad_library

جلس لوكاس على كرسيٍّ بجانب الرّجل الذي كان قد ضربَه قبل ساعاتٍ.

سأل الضابطُ الرّجلَ:

ـ هل تستطيع التّعرّف على هذا المعتدي يا دكتور؟

ـ لم يعتد عليّ أحدٌ، أكرّر لك. لقد انزلقت على الأرض المتجمّدة.

قال الضّابط:

ـ لقد سقطتَ على ظهركَ. رجالنا وجدوك ملقىً على ظهرك. أليس غريباً إذن أن توجد على جبينك كدمة دامية؟

ـ الظّاهرُ أنّني سقطت إلى الأمام، ثمّ استدرت على ظهري حين بدأت استعيد وعيي.

قال الضّابط:

ـ هوَذا. لقد أكّدت كذلك أنّك داومتَ بالمستشفى ليلة أمس. بعد التّحري تأكّد لنا أنّك غادرت المستشفى في التّاسعة، وقضيت اللّيلة في بيت السيّدة.

قال الطّبيب:

ـ لم أُرد أن أحشرها في المسألة.

اِستدار الضّابط شطرَ لوكاس:

ـ لقد لمحك جيران السيّدة مراراً تدخل بيتها.

قال لوكاس:

ـ منذ مدّة صرتُ أقضي حاجياتها. خاصّة، الأسبوع الماضي حين كانت مريضة.

ـ نعلمُ أنّك لم تعد إلى بيتك هذه اللّيلة. أين كنت؟

ـ كنت متعباً جداً. بعد إغلاق الحانات، ذهبت عند صديق وبتُّ اللّيلة في منزله. وغادرت البيت في السّابعة والنّصف.

ـ ومن هذا الصّديق؟ أحسب أنّه أحد رفاقك بالحانات.

ـ كلاّ. إنّه سكرتير الحزب.

ـ أتدّعي أنّك قضيت اللّيلة عند سكرتير الحزب.

ـ أجل، ولقد قدّم لي القهوة مع السّابعة صباحاً.

خرج الضّابط من القاعة.

اِستدار الطبيب صوبَ لوكاس، ونظر إليه مطوّلاً. بادله لوكاس النظرة بالمثل. ثمّ نظر الطّبيب إلى كلارا، فنظرت هي إلى النّافذة. نظر الطّبيب بين يديه، وقال:

ـ لم أقدّم ضدك أيّ شكايةٍ، على الرّغم من أنّني استطعت التّعرّف عليك. لقد عثَرت عليَّ دوريّة من خفر الحدود، وجلبوني إلى هنا مثل سكّير متشرّد. الأمر برمّته مزعجٌ بالنّسبة لي. أرجوك أن تتكتّم على الأمر تكتّماً تاماً. أنا طبيبٌ نفسيّ معترف به دولياً. وعندي أطفال.

قال لوكاس:

ـ الحل الوحيد هو أن تترك هذه المدينة. إنّها مدينة صغيرة. سيعلم الجميع بما جرى عاجلاً أم آجلاً. حتّى زوجتك ستعلم بما جرى.

ـ هل هذا تهديد؟

ـ أجل.

ـ أنا منفيٌّ هنا، في هذه الحفرة المنسيّة. لستُ أنا من يقرّر بشأن تنقّلي.

twitter @baghdad_library

دخل الضّابط رفقة بيتر. نظر بيتر إلى لوكاس، ثمّ إلى كلارا، فالطّبيب. قال الضّابط:

ـ لقد تمّ تأكيد ادّعائك يا لوكاس.

ثمّ استدار شطر الطّبيب:

ـ أعتقد أنّنا سنوقف الأمور هنا يا دكتور. لقد انزلقتَ ساعةَ عودتك من المستشفى. حُفظت القضيّة.

سأل الطّبيب بيتر:

ـ هل أستطيع زيارتك يوم الاثنين في مكتبك؟ أرغب في ترك هذه المدينة.

قال بيتر:

ـ بكلّ تأكيد. تستطيع الاعتماد عليّ.

نهض الطّبيب ومدّ يده إلى كلارا:

ـ أنا آسفٌ.

أشاحت كلارا بوجهها، فغادر الطّبيب القاعة قائلاً:

ـ شكراً أيّها السّادة.

قال لوكاس لكلارا:

ـ سأرافقك.

اِنطلقت كلارا أمامه دون أن تنبس بكلمة.

خرج لوكاس وبيتر بدورهما من المخفر. تابع بيتر كلارا وهي تبتعد:

ـ هي السّببُ إذن.

قال لوكاس:

- اِفعل كلّ ما في وسعك يا بيتر، كي ينتقل هذا الرّجل. إذا ما ظلّ في المدينة، فلا محالة أنّه ميّت.

قال بيتر:

- أصدّقك. أنت مجنون بما يكفي للقيام بذلك. لا تشغل بالك. سيرحل. لكن، ماذا إذا كانت تحبّه، أوَ تدرك ما ستسبّبه لها؟

قال لوكاس:

- هيَ لا تحبّه.

عندما عاد لوكاس من المخفر، كان الوقت تقريباً منتصف اليوم.

سأله الطّفل:

- ألم يحبسوك؟

قالت ياسمين:

- أرجو ألاّ يكون الأمر خطيراً.

قال لوكاس:

- كلاّ. كلّ شيء على ما يرام. لقد طلبوا شهادتي بخصوص مشاجرةٍ.

قالت ياسمين:

- ينبغي أن تذهب لرؤية السيّد الخوري. لم يعد يأكل. لم يمسس ما حملته له أمس وقبل أمس.

أخذ لوكاس قنينةً مليئة بحليب الماعز وقصَد بيت الخوري. فوق طاولة المطبخ كان الطّعام قد فسد. الفرن بارد. عبر لوكاس غرفةً فارغة، ثمّ دخل إلى غرفة النّوم دون أن يطرق البابَ. كان الخوري راقداً في فراشه.

سأله لوكاس:

twitter @baghdad_library

ـ أأنت مريضٌ؟

ـ كلاّ، أنا فقط مقرورٌ. مقرورٌ على الدّوام.

ـ سأحضر لك ما يكفي من الحطَب. لمَ لا تشعل المدفأة؟

أجابه الخوري:

ـ ينبغي الاقتصاد في الخشب، وفي الأشياء الأخرى.

ـ أنت فقط كسول لدرجة أنّك لا تستطيع إيقاد النّار.

ـ أنا شيخ مسنٌّ، ما عادت بي من قوّة.

ـ لا قوّة بك، لأنّك لا تأكل.

ـ لا شهية لي. منذ توقّفت أنت عن إحضار الطّعام، فقدتُ شهيّتي.

مدّ له لوكاس روبَ النوم:

ـ اِلبس رداءك وتعالَ معي إلى المطبخ.

أعانَ الرّجلَ المسنَّ على ارتداء روبه، ثمّ ساعده على المشي حتّى المطبخ، وأعانه أخيراً على الجلوس على المصطبة، ثمّ صبّ له قدح حليب. شرب الخوري. قال لوكاس:

ـ لا يمكن أن تستمرّ في العيش بمفردك. أنت طاعنٌ في السنّ.

وضع الخوري القدحَ، ونظر إلى لوكاس:

ـ أنا راحلٌ يا لوكاس. لقد استدعاني رؤسائي. سأقضي ما تبقّى من أيام حياتي أستريح في دير. لن يبقى خوريٌّ في هذه المدينة. سيأتي خوري المدينة المجاورة مرّة في الأسبوع لإحياء القدّاس.

ـ إنّه قرارٌ حصيفٌ. أنا سعيدٌ لأجلك.

ـ سآسف لترك هذه المدينة. لقد قضيت هنا خمساً وأربعين سنةً.

بعد برهة صمتٍ، استطرد الخوري:

ـ لقد اعتنيت بي لسنواتٍ عديدة، كأنّما أنت ابني الفعليّ. أريد أن أشكرك. لكن كيف السّبيل إلى شكر هذا القدر من الحبّ والطّيبة؟

قال لوكاس:

ـ لا تشكرني، ليس ثمّة أيّ حبّ أو طيبة بداخلي.

ـ هذا ما تعتقده يا لوكاس. أنا مقتنع بعكس ذلك. لقد تلقّيتَ جرحاً لم تبرأ منه بعدُ.

صمت لوكاس، وواصل الخوري:

ـ لديّ انطباعٌ بأنّي أتخلى عنك في مرحلة صعبةٍ جداً من حياتك، لكنّي سأكونِ معك بتفكيري، وسأصلّي دون توقّف لأجل خلاص روحك. لقد اتّخذتَ طريقاً سيئةً، وإنّي لأتساءل أحياناً، إلى أيّ حدّ ستذهب. إنّ طبيعتك الشغوفة والقلقة قد تدفع بك بعيداً، حتّى أسوء الأقاصي. لكنْ لتحفظِ الأملَ. إنّ رحمةَ الإله لا حدود لها.

نهض الخوري، وحضن وجه لوكاس بيَدَيه:

ـ «(فَاذْكُرْ خَالِقَكَ فِي أَيَّام شَبَابِكَ، قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ الشَّرّ أَوْ تَجِيءَ السِّنُونَ إِذْ تَقُولُ: لَيْسَ لِي فِيهَا سُرُورٌ...)».

خفض لوكاس رأسَه، فلمس جبينُه صدرَ الشيخ:

ـ «قبلَ ما تظلمُ الشّمسُ والنّورُ والقمرُ والنجومُ، وترجع السّحبُ بعد المطر» إنّه سفر الجامعة.

هزّت جسدَ الرّجل النّحيل شهقةٌ:

ـ أجل. لقد عرفتَه. ما زلتَ تذكره. عندما كنتَ طفلاً، كنتَ تحفظ

twitter @baghdad_library

عن ظهر قلبٍ صفحاتٍ بأكملها من الكتاب المقدّس. أما زلت تجد الوقت لقراءته أحياناً؟

حرّر لوكاس نفسَه:

ـ لديّ الكثير من العمل. وكتبٌ أخرى أقرؤها.

قال الخوري:

ـ أتفهّمك. وأدرك أيضاً أنّ عِظاتي تزعجك. اِنصرف الآن، ولا تعد أبداً. سأرحل غداً مع أوّل قطار.

قال لوكاس:

ـ أتمنى لك راحةً هنيئة أبتِ.

ثمّ عاد إلى المنزل، وقال لياسمين:

ـ سيرحل السيّد الخوري غداً. لن يكون لزاماً حمل الطّعام إلى بيته.

سأله الطّفل:

ـ هل سيرحل لأنّك ما عدتَ تحبّه؟ أنا وياسمين سنرحل أيضاً إذا لم تعد تحبّنا.

قالت ياسمين:

ـ أُصمت يا ماتياس!

صرخ الطّفل:

ـ هيَ من قال ذلك! لكنّك تحبّنا، أليس كذلك يا لوكاس؟

حمله لوكاس بين ذراعَيْه:

ـ بالطّبع يا ماتياس.

في بيت كلارا كانت النّار متّقدة في مدفأة الصالون. بابُ غرفة النّوم مواربٌ.

دلف لوكاس إلى الغرفة. كلارا مضطجعة تحمل كتاباً بيدها. نظرت إلى لوكاس، أغلقت الكتابَ، وضعته على المنضدة جانب السّرير.

قال لوكاس:

ـ عفواً يا كلارا.

أبعدت كلارا اللّحاف الذي كان يغطّيها. كانت عارية. واصلت التّحديق في لوكاس:

ـ هذا ما كنتَ تريدُه، أليس كذلك!

ـ لا أدري. حقاً لا أدري يا كلارا.

أطفأت كلارا مصباح المنضدة:

ـ ما الذي تنتظره؟

أشعل لوكاس مصباح المكتب ووجّهه شطرَ السّرير. أغمضت كلارا عينيها.

جثا لوكاس عند طرف السّرير، باعد بين ساقَي كلارا، ثمّ باعد طرفَي فرجِها. سال خيط دمٍ رفيع. مال لوكاس، وبدأ يلعق، يشرب الدّم. تأوّهت كلارا، وتشبّثتْ يداها بشعر لوكاس.

نزع لوكاس ملابسه واضطجع فوق كلارا، اقتحمها، صرخ. لاحقاً، قام لوكاس، وفتح النّافذة. بالخارج كان الثلج يتساقط. عاد لوكاس إلى السّرير. ضمّته كلارا. كان لوكاس يرتجف. قالت له:

ـ إِهدأ.

داعبت شعر لوكاس ووجهه. سألها:

twitter @baghdad_library

ـ لست غاضبةً منّي بسبب ما حدث للآخر.

ـ كلاّ، كان من الأفضل أن يرحل.

قال لوكاس:

ـ كنت أعلم أنّك لا تحبّينه. لقد كنت تعيسةً جداً الأسبوعَ الماضي حين أتَيتِ إلى الحانة.

قالت كلارا:

ـ لقد عرفتُه في المستشفى. هو من عالجني حين عاودني الاكتئاب الصّيفَ الماضي. كانت تلك نوبة الاكتئاب الرّابعة التي تصيبني منذ وفاة توماس.

ـ يحدث كثيراً أن تحلمي بتوماس؟

ـ أحلم به كلّ ليلة. لكنّي لا أرى سوى عملية إعدامه. لا أحلم قطّ به حيّاً سعيداً.

قال لوكاس:

ـ أنا أرى أخي أينما ولّيتُ وجهي. بغرفتي، في الحديقة، أراه في الشّارع يمشي معي جنباً إلى جنبٍ. يكلّمني.

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول إنّه يعيش وحدةً قاتلةً.

غفا لوكاس بين ذراعَي كلارا. وفي أعمق أعماق اللّيل، عاود اجتياحَها، برفقٍ، كأنّما يلج حلماً.

صار لوكاس الآن يقضي لياليه كلّها في بيت كلارا.

الشتاء قاسٍ جداً هذه السّنة. طيلة خمسة أشهر لم تظهر الشّمس.

المدينة الخالية راكدةٌ وسط ضباب صقيعي، الأرض متجمّدة، والنّهر أيضاً.

في المطبخ، ببيت الجدّة، تتّقد النّار دون توقّف. سرعان ما ينفذ حطب التّدفئة. ظهيرةَ كلّ يوم يقصد لوكاس الغابة بحثاً عن الحطب الّذي يتركه يجفّ قرب فرن المطبخ.

يظلّ باب المطبخ مواربأً، لتدفئة غرفة ياسمين والطّفل. أمّا غرفة لوكاس، فتظلّ بلا تدفئة.

عندما تكون ياسمين منهمكة في الخياطة أو الحياكة، يجلس لوكاس مع الطّفل على البساط الذي نسجته ياسمين والذي يغطّي أرضيةَ المطبخ، ويلعبان معاً برفقة الكلب والقطّ. يتفرّجان على الكتب المصوّرة، ويرسمان. يعلّم لوكاس ماتياس الحسابَ بواسطة مِعْدادٍ.

ياسمين تعدّ وجبة المساء. ثلاثتهم جالسون على مصطبة المطبخ. يأكلون البطاطس، أو الفاصوليا مجفّفة، أو الملفوف. الطّفل لا يحبّ هذه الأطعمة، فلا يأكل إلا قليلاً. يعدّ له لوكاس شطائر مربّى.

بعد الفراغ من الأكل، تغسل ياسمين الأواني، بينما يصطحب لوكاس الطّفل إلى غرفته، ينزع ملابسه، يضعهُ في السّرير، ويحكي له حكاية. عندما ينام الطّفل، يذهب لوكاس عند كلارا، في الطّرف الآخر من المدينة.

twitter @baghdad_library

٤

أشجار الكستناء في عزّ إزهارها بشارع المحطّة. بتلات أزهارها البيضاء تغطّي الأرض بطبقة سميكة، لدرجة أنّ لوكاس لا يستطيع سماع وقع خطواته. عائدٌ هو من بيت كلارا، في ساعةٍ متأخّرة.

الطّفل جالسٌ على مصطبة الزّاوية بالمطبخ. قال لوكاس:

ـ إنّها الخامسة صباحاً. لمَ استيقظتَ في هذه الساعة المبكّرة؟

سأله الطّفل:

ـ أين ياسمين؟

ـ لقد ذهبت إلى المدينة الكبيرة. صارت تشعر بالضّجر هنا.

جحظت عينا الطّفل السوداوان:

ـ ذهبت؟ بدوني؟

اِستدار لوكاس. أوقدَ نار الفرن. سأله الطّفل:

ـ هل ستعود؟

ـ كلاّ، لا أعتقد.

صبّ لوكاس قليلاً من حليب الماعز في قدْرٍ وبدأ في تسخينه.

سأله الطّفل:

ـ لمَ لمْ تصطحبني معها؟ كانت قد وعدتني بأن تأخذني معها.

قال لوكاس:

ـ لقد فكّرَت في أنّك ستكون أفضل حالاً معي، وذاك ما أعتقده أنا أيضاً.

قال الطّفل:

ـ لست أفضلَ حالاً هنا برفقتك، سأكون أفضل حالاً أنّى كنت معها.

قال لوكاس:

ـ المدن الكبيرة ليست ممتعةً بالنّسبة لطفلٍ، ليس ثمّة بساتين ولا حيوانات.

قال الطّفل:

ـ لكن ثمّة أمّي.

نظر عبر النّافذة. وحين استدار مرّة أخرى، كانت ملامح وجهه قد غيَّرها الألم:

ـ هي لا تحبّني. لأنّني معاق. لهذا تركتني هنا.

ـ كلا يا ماتياس. إنّها تحبّك من صميم قلبها. وأنت تعرف ذلك جيداً.

ـ ستعود إذن لتصطحبني معها.

أبعد الطّفلُ فنجانَه وصحنَه، وغادر المطبخ. اِنصرف لوكاس إلى رَيِّ الحديقة. أشرقت الشّمسُ.

الكلب نائمٌ أسفل الشّجرة، يقترب منه الطّفل، حاملاً بيده عصاً. لوكاس يتابع الطّفلَ. الطّفلُ يرفع العصا ويهوي بها على الكلب. يهِرُّ الكلب ويفرّ هارباً. ينظر الطّفل إلى لوكاس:

ـ أنا لا أحبّ الحيوانات، ولا البساتين.

twitter @baghdad_library

أخذ الطّفل يهوي بعصاه على البقول والطّماطم والقرع والفاصوليا والزّهور. لوكاس يتابعه دون أن ينبس بكلمة.

جال الطّفل في البيت، ثمّ رقد في سرير ياسمين. تبعه لوكاس وجلس عند طرف السّرير:

ـ أنت إذن تعيس جداً لأنّك بقيت معي؟ لمَ؟

ثبّت الطّفل نظره على السّقف:

ـ لأنّي أكرهك.

ـ تكرهني؟

ـ أجل، لطالما كرهتك.

ـ لم أكن أعرف هذا. أتستطيع أن تشرح لي لمَ؟

ـ لأنّك طويل القامة، ووسيمٌ، ولأنّي كنت أحسبُ أنّ ياسمين تحبّك. ولكن بما أنّها رحلت، فإنّها لا تحبّك، أنت أيضاً. أتمنى أن تكون تعيساً قَدْرَ تعاستي.

وضع لوكاس رأسه بين يديه. سأله الطّفل:

ـ أتبكي؟

ـ كلاّ، لست أبكي.

ـ لكنّك حزينٌ بسبب ياسمين؟

ـ كلاّ، لست حزيناً بسبب ياسمين. وإنّما أنا حزين لحزنك.

ـ صحيح؟ أنت حزين بسببي؟ جيّدٌ إذن.

يبتسم:

ـ مع ذلك لستُ سوى مشوّهٍ صغير، بينما ياسمين جميلة.

بعد برهة صمتٍ سأله الطّفلُ:

ـ أين هي أمّك، أنت؟

ـ لقد ماتت.

ـ كانت مسنّة جداً، لهذا ماتت؟

ـ كلاّ، لقد ماتت بسبب الحرب. قتلتها قذيفةٌ هي وطفلتها الرّضيعة، أختي.

ـ أين هم الآن؟

ـ أينما كان الموتى، يكونون عدماً.

قال الطّفل:

ـ إنّهما بالعليّة. لقد رأيتهما. ذاك الشيء العظميّ الكبير، والشيء العظميّ الصّغير.

سأله لوكاس بصوتٍ خفيض:

ـ هل صعدت إلى العليّة؟ كيف فعلت؟

ـ لقد تسلّقت. الأمر سهل. سأريك.

صمت لوكاس. قال الطّفل:

ـ لا تخف. لم أخبر أحداً بالأمر. لا أريد أن يأخذوهما منّا. أنا أحبّهما.

ـ تحبّهما؟

ـ أجل. خاصّة الرّضيعة. إنّها أبشع منّي وأصغر قامةً. ولن تكبر أبداً. لم أكن أعرف أنّها فتاةٌ. لا يمكن أن نعرف جنس تلك الأشياء حين تكون عظماً دون لحم.

ـ تلك الأشياء تسمّى هياكل عظميّة.

twitter @baghdad_library

ـ أجل. هياكل عظمية. لقد رأيت مثلها في الكتاب الكبير الموضوع في أعلى رفٍّ من المكتبة.

لوكاس والطّفل جالسَيْن بالحديقة. من العليّة يتدلّى حبلٌ حتّى الارتفاع المضبوط الذي تبلغه ذراع لوكاس ممدودةً. قال:

ـ أرني كيف تصعد.

سحب الطّفل مصطبةَ الحديقة الموضوعة أبعد قليلاً، تحت نافذة غرفة لوكاس. ارتقى المصطبة، ثمّ قفز وأمسك بالحبل، وخفّف من حدّة التأرجح بإسناد قدميه إلى الحائط، وبواسطة يديه وقدميه تسلّق الحبلَ حتّى بلغ باب العليّة. تبعه لوكاس. جلسا على الفراش، وأخذا ينظران إلى الهيكلَين المعلَّقَين على عارضة.

سأله الطّفل:

ـ ألم تحتفظ بهيكل أخيك؟

ـ من قال لك إنّ لي أخاً؟

ـ لم يخبرني أحد. لقد سمعتك تكلّمه. أنت تتكلّم معه، وهو غير موجود في أيّ مكان، وموجود في كلّ مكان، هو إذن ميّت.

قال لوكاس:

ـ كلاّ. هو لم يمت. لقد رحل إلى بلاد أخرى، وسيعود.

ـ مثل ياسمين. هيَ أيضاً ستعود.

ـ أجل، الأمر نفسه ينسحب على أخي وأمّك.

قال الطّفل:

ـ هذا هو الاختلاف الوحيد بين الموتى، وبين من رحلوا إلى مكانٍ آخر، أليس كذلك؟ من لم يموتوا سيعودون.

أجاب لوكاس:

ـ لكن كيف السّبيل إلى معرفة ما إذا لم يكونوا قد ماتوا أثناء غيابهم؟

ـ لا يمكن أن نعرف.

صمت الطّفل برهةً، ثمّ سأل:

ـ ما الذي شعرت به حين رحلَ أخوك؟

ـ لم أعرف كيف أعيش من دونه.

ـ والآن، صرت تعرف؟

ـ أجل، منذ أن أتيتَ أنت، صرت أعرف.

فتح الطّفلُ الصّندوق:

ـ هذه الدّفاتر الكبيرة في الصّندوق، ما هي؟

أعاد لوكاس غلق الصّندوق:

ـ لا شيء. يا إلهي! لحسن الحظّ أنّك لا تعرف القراءة بعد.

ضحك الطّفل:

ـ أنت مخطئ، عندما تكون الحروف مطبوعة أستطيع قراءتها. أنظر.

أعاد فتح الصّندوق وأخرج الكتاب المقدّس، ثمّ قرأ منه كلماتٍ، وجُملاً بأكملها.

سأله لوكاس:

ـ أين تعلّمت القراءة؟

twitter @baghdad_library

ـ في الكتب طبعاً. في كتبي، وأيضاً في كتبك.

ـ مع ياسمين؟

ـ كلاّ، تعلّمت وحدي. ياسمين لا تحبّ القراءة. قالت إنّي لن أذهب أبداً إلى المدرسة. لكنّي سأذهب قريباً إلى المدرسة، أليسَ كذلك يا لوكاس؟

قال لوكاس:

ـ أستطيع تعليمك ما شئتَ.

قال الطّفل:

ـ إنّ المدرسة إجبارية، ما إن نبلغ سنّ السّادسة.

ـ ليست إجبارية بالنّسبة لك. نستطيع الحصول على إعفاء.

ـ لأنّني مشوّه، أليس كذلك؟ لا أريد إعفاءك. أريد أن أذهب إلى المدرسة مثل جميع الأطفال.

قال لوكاس:

ـ إذا ما كنت راغباً في الذّهاب إلى المدرسة، فستذهب. لكن لِمَ ترغب في ذلك؟

ـ لأنّي أعرف أنّني في المدرسة سأكون الأقوى والأذكى.

ضحك لوكاس:

ـ والأكثر زهواً بنفسه دون ريب. أنا لطالما مقتُّ المدرسة. تظاهرت بالصّمم كي لا أُجبرَ على الذّهاب إليها.

ـ أفعلتَ ذلك؟

ـ أجل. اِسمع يا ماتياس. تستطيع أن تصعد إلى هنا متى شئتَ. وتستطيع أن تذهب إلى غرفتي، حتّى في غيابي. تستطيع القراءةَ في

الكتاب المقدّس والمعجم والموسوعة بأكملها إن أردتَ ذلك. لكن لا تقرب الدّفاتر يا ابن الشّيطان.

ثمّ أضاف:

ـ هكذا كانت تنادينا الجدّة: «ابنَا الشّيطان».

ـ من تقصد بأنتما؟ أنت والآخر؟ أنت وأخوك؟

ـ أجل، أنا وأخي.

نزلا من العليّة، وذهبا إلى المطبخ. لوكاس يُعدّ الطّعامَ. سأله الطّفل:

ـ من سيغسل الأواني، والملابس؟

ـ نحن الاثنان. معاً. أنا وأنت.

تناولا طعامهما. تدلّى لوكاس من النّافذة وتقيّأ. استدارَ بوجه معرق. فقد وعيه وسقط على أرضية المطبخ.

صاح الطّفل:

ـ لا تفعل هذا يا لوكاس، لا تفعله!

فتح لوكاس عينيه:

ـ لا تصرخ يا ماتياس. ساعدني على النّهوض.

سحبه الطّفل من ذراعه. تشبّث لوكاس بالطّاولة، وبخطىً مترنّحة غادر المطبخَ، وجلس على مصطبة الحديقة. واقفاً قبالته أخذ الطّفل يسأله:

ـ ما الخطب يا لوكاس؟ لقد متَّ لبرهةٍ!

ـ كلاّ، لقد أصبت بوعكة فقط، بسبب الحرارة.

سأله الطّفل:

twitter @baghdad_library

ـ رحيلها، ليس أمراً ذا شأن، أليس كذلك؟ ليس الأمر بهذه الخطورة؟ لا يمكن أن تموت بسبب هذا؟

لم يجبه لوكاس. جلس الطّفل عند قدمَيْه، ضمّ ساقيه، ووضع رأسه الأجعد على ركبتَي لوكاس:

ـ قد أصير ابنَك لاحقاً.

حين نام الطّفل، صعد لوكاس مجدّداً إلى العليّة. أخذ الدّفاتر من الصّندوق، وضعها جميعاً في كيس قنّب، ثمّ قصَد المدينةَ.

رنّ على بيت بيتر.

ـ أريد منك أن تحتفظ لي بهذا يا بيتر.

وضع الكيس فوق طاولة الصالون.

سأله بيتر:

ـ ما هذا؟

فتح لوكاس الكيس:

ـ إنّها دفاتر مدرسيّة.

هزّ بيتر رأسه:

ـ هذا ما أخبرني به فيكتور. أنت تكتب. تشتري الكثير من الأوراق والأقلام. منذ سنوات وأنت تشتري أقلاماً وأوراقاً مربّعة ودفاتر مدرسيّة كبيرة الحجم. هل تؤلّف كتاباً؟

ـ كلاّ، لا أكتب كتاباً، أسجّل ملاحظاتٍ فحسب.

قلّب بيتر الدّفاتر:

ـ ملاحظات! نصف دستةٍ من الدّفاتر السّميكة.

ـ الملاحظات تتراكم على امتداد السّنوات. مع أنّي أحذف الكثير. لا أترك منها إلا ما بدا لي ضرورياً جداً.

سأله بيتر:

ـ لمَ تريد إخفاءها؟ هل بسبب الشّرطة؟

ـ بسبب الشّرطة؟ يالها من فكرة! بسبب الطّفل. لقد صار يعرف القراءة، وينقّب في كلّ مكانٍ. لا أريده أن يقرأ ما دُوِّن في هذه الدّفاتر.

اِبتسم بيتر:

ـ وأمّ الطّفل أيضاً، لا ينبغي أن تقرأ ما دُوِّن هنا، أليس كذلك؟

ـ لم تعد ياسمين تقطن بيتي. لقد رحلت. كانت دائماً تحلم بالمدينة الكبيرة. أعطيتُها نقوداً.

ـ وتركت لك الطّفلَ؟

ـ لقد أصررتُ على الاحتفاظ به.

أشعل سيجارةً وأخذ ينظر إلى لوكاس دون أن ينطق بكلمة.

سأله لوكاس:

ـ هل تستطيع الاحتفاظ بالدّفاتر، نعم أم لا؟

ـ بالطّبع أستطيع.

لمَّ بيتر كيس الكتب، وحمله إلى غرفته. وحين عاد، قال:

ـ لقد وضعتها تحت سريري. غداً أتدبّر لها مخبأً أفضل.

قال لوكاس:

ـ شكراً يا بيتر.

ضحك بيتر:

twitter @baghdad_library

ـ لا داعي لشكري. إنّ دفاترك تهمّني على نحو خاصّ.

ـ أتنوي قراءَتها؟

ـ بالطّبع. إذا لم تكن ترغب في أن أقرأها، ما عليك سوى حملها إلى بيت كلارا.

نهض لوكاس:

ـ إلا هذا! كلارا تقرأ كلّ ما يمكن أن يُقرأ. لكنّي أستطيع أن أعهد بها إلى فيكتور.

ـ في هذه الحال، سأقرؤها عند فيكتور. لا يستطيع أن يرفض لي طلباً. ثمّ إنّه راحلٌ قريباً. يريد أن يعود إلى مسقط رأسه، قرب أخته. ينوي بيع منزله والمكتبة.

قال لوكاس:

ـ أعد إليّ دفاتري، سأدفنها في مكانٍ مّا بالغابة.

ـ أجل، اِدفنها. أو لعلّ الأفضل لك أن تحرقها. تلك هي الطّريقة الوحيدة كي تضمن أن لا يقرأها أحد.

قال لوكاس:

ـ عليّ الاحتفاظ بها لكلاوس. لقد حرّرت هذه الدّفاتر لأجله. لأجله وحده.

فتح بيتر الرّاديو. قلّب الإذاعات طويلاً قبل أن يعثر على موسيقى هادئة:

ـ اِجلس يا لوكاس، وقل لي من هو كلاوس.

ـ أخي.

ـ ما كنتُ أعرف أنّ لك أخاً. لم يسبق أن حدّثتني عنه. لم يسبق أن حدثني عنه أحد، حتى فيكتور الذي يعرفك مُذ كنتَ طفلاً.

قال لوكاس:

ـ أخي يعيش، منذ سنوات، على الجهة الأخرى من الحدود.

ـ كيف استطاع عبور الحدود. يُقال إنّ عبورها مستحيل.

ـ لقد اجتازها، وهذا كلّ ما في الأمر.

بعد برهة صمت، سأله بيتر:

ـ أما زلتما تتراسلان؟

ـ ما الذي تقصده بالتّراسل.

ـ ما يقصده الجميع بالتّراسل. هل تكاتبه؟ هل يكاتبك؟

ـ أكتب له كلّ يوم في الدّفاتر. ومن المؤكّد أنّه يفعل الشيء نفسه.

ـ لكنّك لم تستلم قطّ أيّ رسالةٍ منه؟

ـ لا يمكن أن تصل الرّسائل من هناك.

ـ العديد من الرّسائل تصل من الجهة الأخرى للحدود. ألم يكاتبك أخوك ولا مرّة، منذ رحيله؟ ألم يعطِكَ أيّ عنوانٍ؟

هزّ لوكاس رأسَه، ثمّ قام مرّةً أخرى:

ـ تحسب أنّ أخي قد مات، أليس كذلك؟ لكنّ كلاوس حيّ، وسيعود.

ـ أجل يا لوكاس. أخوك حيٌّ وسيعود. أمّا الدّفاتر، فبوسعي أن أعدك بأنّي لن أقرأها، لكنّك ما كنت لتصدّقني.

ـ أنت محقّ، ما كنت لأصدّقك. أعلم أنّك لا تستطيع مقاومة

twitter @baghdad_library

قراءتها. كنت أعلم ذلك وأنا قادمٌ إليك. اِقرأها إذن. أفضّل أن تقرأها أنت، على أن تقرأها كلارا أو أحد آخر.

قال بيتر:

ـ هذا أيضاً من الأمور التي لا أستطيع فهمها، أقصد علاقتك بكلارا. إنّها تكبرك بكثير.

ـ فيمَ يهمّ السّن؟ أنا عشيقها. أهذا ما كنت ترغب في معرفته؟

ـ لا، ليس هذا فحسب. هذا كنت أعرفه أصلاً. أوَ تحبّها؟

فتح لوكاس الباب:

ـ لا أعرف معنى هذه الكلمة. لا أحد يعرف معناها. ما كنت أنتظر مثل هذا السؤال منك يا بيتر.

ـ ومع ذلك، سيتمّ طرح هذا السؤال عليك مراراً، طيلةَ حياتك. وأحياناً ستكون ملزماً بالإجابة.

ـ وأنت يا بيتر؟ أنت أيضاً ستكون مجبراً أحياناً على الإجابة عن بعض الأسئلة. لقد سبق أن حضرت بعضاً من اجتماعاتك السياسيّة. تتلو الخطب، فتصفّق القاعة. هل تعتقد صدقاً بما تقول؟

ـ أنا مضطر لتصديق ذلك.

ـ لكن في أعماق نفسك، ما الذي تعتقده؟

ـ لا أفكّر في هذا الأمر. لا حقّ لي في هذا المستوى من الرّفاهية. الخوف يسكنني منذ طفولتي.

كلارا واقفةٌ قبالة النّافذة، تتابع الحديقة الغارقة في اللّيل. لم تستدر حين دخل لوكاس إلى الغرفة. قالت:

ـ الصيف مرعب. الصّيف هو الفصل الذي يكون الموت فيه دَنِياً. كلّ شيء يجفّ، يختنق، يهمَد. مرّت أربع سنواتٍ على قتلهم توماس. قتلوه في شهر غشت/آب، في الصباح الباكر، ما إن بزغ الفجر. شنقوه. المقلق في الأمر، أنّهم يعاودون الأمرَ كلّ صيف. في الفجر، عندما تعود إلى بيتك، أقصِدُ النّافذةَ، فأراهم .يعاودون قتله، مع أنّه من غير الممكن قتل الشّخص نفسه، مرّاتٍ عديدة.

قبّل لوكاس رقبة كلارا:

ـ ما بك يا كلارا؟ ما بك اليوم؟

ـ اليوم وصلتني رسالة. رسالةٌ رسميّة. إنّها هناك، على مكتبي، تستطيع قراءتها. أعلموني بردّ الاعتبار لتوماس، ببراءته. لم أشكّ قطّ في براءته. كتبوا «زوجك بريء، لقد أعدمناه خطأً. لقد أعدمنا الكثير من النّاس خطأً. لكنّ الأمور اليوم عادت إلى نصابها، إنّنا نبلغكم اعتذارنا، ونعدكم بأنّ مثل هذه الأخطاء لن يتكرّر.» يقتلون الإنسان، ثمّ يعيدون إليه الاعتبار. لقد *اعتذروا*، لكنّ توماس مات! هل يقدرون على بعثه؟ هل بوسعهم مسح تلك اللّيلة حيث صار شعري أشيب، وصرت مجنونة؟

«في تلك اللّيلة الصّيفية كنت وحدي في شقّتنا، شقّتنا أنا وتوماس. لشهورٍ وأنا بمفردي. ما إن سجنوا توماس، حتّى انفضّ من حولي الجميع، لا أحد كان يريد، أو يقدر، أو يجرؤ حتّى، على زيارتي. كنت معتادةً على الوحدة، ولم تكن من غرابةٍ في بقائي وحدي. لم أنم، لكنّ ذلك أيضاً لم تكن فيه أدنى غرابة. ما كان غير مألوفٍ، هو كوني لم أبكِ تلك اللّيلة. مساء اليوم السّابق لتلك اللّيلة، أذاع الرّاديو أسماء الأشخاص الذين سينفّذ فيهم حكم الإعدام. ومن بين الأسماء المعلَنة،

twitter @baghdad_library

تبيّنتُ بوضوحٍ اسمَ توماس. وعلى السّاعة الثالثة صباحاً، ساعة الإعدام، نظرتُ إلى المشنقة. ظللتُ أنظر إليها حتّى السّابعة صباحاً، ثمّ ذهبت إلى عملي، في إحدى الخزانات الكبرى بالعاصمة. جلست إلى مكتبي، بقاعة القراءة. بدأت زميلاتي يقتربن منّي واحدةً بعد أخرى، وسمعتهنّ يتهامسن: «لقد أتت!» «هل لاحظتنّ شعرها؟» غادرت الخزانة، ومشيت في الطّرقات حتى المساء، تهتُ، ما عدت أعرف في أيّ ناحيةٍ من المدينة كنت، مع أنّي كنت أعرف تلك المدينة حقّ المعرفة. عدت إلى بيتي بالتاكسي. على السّاعة الثالثة صباحا نظرت من النّافذة، ورأيتهم، كانوا يشنقون توماس على واجهة العمارة المقابلة. بدأت أصرخ. أتى بعض الجيران. حملتني سيارةُ إسعافٍ إلى المصحّة. والآن، يقولون أنّ ما وقع مجرّد خطإٍ. إعدام توماس، مرَضي، الأشهر التي قضيتها بالمصحّة، شعري الذي شاب، كلّ ذلك لم يكن سوى خطإٍ. ليعيدوا إليّ إذن توماس كما كان، حيّاً، باسماً. توماس الذي كان يحضنني، الذي كان يداعب شعري، الذي كان يأخذ وجهي بين راحتَيه الدّافئتَين، الذي كان يقبّل عينيّ، وأذنيّ، وفمي.

أمسك لوكاس كلارا من كتفيها، وأدارها نحوه:

ـ متى ستكفّين عن ذكر توماس على مسامعي؟

ـ أبداً. أبداً لن أكفّ عن ترديد اسم توماس. وأنت؟ متى ستبدأ في الحديث عن ياسمين؟

قال لوكاس:

ـ ليس ثمّة ما يقال عنها. خاصّة بعدما لم تُعد هنا.

أخذت كلارا تضرب وتخمش وجه لوكاس وعنقه وكتفَيه، وتصرخ:

ـ لم تعد هنا؟ أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

جرّ لوكاس كلارا إلى السّرير، واضطجع فوقها:

ـ إهدئي. ياسمين ذهبت إلى المدينة الكبيرة. وهذا كلّ ما في الأمر.

ضمّت كلارا لوكاس إليها:

ـ سيفرّقون بيننا، كما فرّقوا بيني وبين توماس. سيحبسونك، سيشنقونك.

ـ كلاّ، لقد مضى كلّ ذلك وانقضى. اِنْسي توماس، والسّجن، والحبل.

مع الفجر استيقظ لوكاس:

ـ ينبغي أن أعود إلى البيت. الطّفل يستيقظ باكراً.

ـ هل تركت ياسمين الطّفل هنا؟

ـ إنّه طفلٌ معاقٌ. ما الذي كانت ستصنع به في مدينة كبيرة؟

كرّرت كلارا كلامها:

ـ كيف أمكنها أن تتخلّى عنه؟

قال لوكاس:

ـ أرادت أخذه. لكنّي منعتها.

ـ منعتها؟ بأيّ حقّ؟ إنّه طفلها. ملكها.

أخذت كلارا تنظر إلى لوكاس وهو يرتدي ملابسه. قالت:

ـ ياسمين رحلت لأنّك ما كنت تحبّها.

ـ لقد ساعدتها حين كانت بحاجة للمساعدة. لم أعِدها بشيء.

ـ وأنا أيضاً، لم تعدني بشيء.

عاد لوكاس إلى البيت كي يحضّر الفطور لماتياس.

twitter @baghdad_library

دخل لوكاس إلى المكتبة، فسأله فيكتور:

ـ هل تحتاج أوراقاً أو أقلاماً يا لوكاس؟

ـ كلاّ، أريد أن أتحدّث معك. لقد أخبرني بيتر بأنّك تريد بيع منزلك.

تنهّد فيكتور:

ـ في وقتنا هذا، ما عاد أحدٌ يملك ما يكفي من النّقود لشراء منزل مع محلٍ تجاريّ.

قال لوكاس:

ـ أنا أرغب في شرائه منك.

ـ أنت يا لوكاس؟ أنّى لك؟

ـ سأشتريه بالنّقود التي أحصّلها من بيع بيت جدّتي. لقد اِقترح عليّ الجيش سعراً جيداً.

ـ أخشى أنّ ذلك غير كافٍ يا لوكاس.

ـ أملك أيضاً أرضاً واسعةً. وأشياء أخرى ثمينةً ورثتها من جدّتي.

قال فيكتور:

ـ تعالَ إلى شقّتي هذا المساء، سأترك الباب موارباً.

مساءً، صعد لوكاس السلّمَ المعتم المفضي إلى الشقّة فوق المكتبة. طرق باباً يتسلل منه ضوءٌ رفيع.

صاح فيكتور:

ـ أُدخل يا لوكاس!

دخل لوكاس غرفةً تطفو بها، على الرّغم من النّافذة المفتوحة، سحابةٌ ثقيلة من دخان السّجائر. السّقف يعلوه أثر سخام بنيٍّ، وستائر

القماش مصفرّة. الغرفة مزدحمةٌ بقطع أثاثٍ عتيقة، مصاطبٌ، وأرائك، وطاولات صغيرة، ومصابيح، وديكورات. والجدران مغطاةٌ باللّوحات والمنحوتات. وعلى الأرضية زرابي قديمة متراكمة.

فكتور جالسٌ قرب النّافذة، أمام طاولةٍ مغطّاةٍ بمفرَشٍ من الوبر الأحمر. وعلى الطّاولة علبُ سيجار وسجائرُ، ومنافض من كلّ الأشكال، مليئة بأعقاب السّجائر، موضوعةٌ جنباً إلى جنبٍ مع كؤوسٍ، وقارورة مليئة إلى النّصف بسائل مائلٍ إلى الصُّفرة.

ـ اِقترب يا لوكاس. اِجلس واشرب كأساً.

جلس لوكاس، وصبّ له فيكتور كأساً، ثمّ عبّ ما في كأسه وملأها مرّةً أخرى:

ـ كان بودّي لو قدّمت لك مشروبَ ماءِ ـ حياةٍ من النّوع الرّفيع، من قبيل ذاك الذي أتتني به أختي أثناء زيارتها الماضية. لكن للأسف، قد نفد. زارتني أختي شهر يوليو/تمّوز الماضي، كان الجوّ حاراً، كما تذكر. لا أحبّ الحرارة، ولا الصّيف. لا بأس بالصّيف الرطب الممطر، لكن موجات الحرّ الشّديدة تمرضني.

«لدى وصولها، كانت أختي قد حملت معها لتراً من ماء ـ الحياة المقطّر من المشمش، ذاك الذي نشربه عادةً في بلدنا. كانت تحسبُ أنّ القنينة ستكفيني سنةً أو على الأقل حتّى أعياد الميلاد. والحقيقة أنّي شربت نصفها في الليلة الأولى فقط. ولأنّي شعرت بالخزي، أخفيتُ القنينةَ، ثمّ اشتريت قنينة من ماء الحياة الرّديء ـ إذ لا نعثر في السّوق على أفضل ـ، ملأت بها قنينةَ أختي، وعرضتها في أكثر المواضع بروزاً، هناك على المنضدة قبالتَك.

«هكذا، وأنا أشرب كلّ ليلة من ماء ـ حياة مشمش رديء، استطعت

twitter @baghdad_library

أن أُطمئن أختي، عن طريق عرض قنينتها التي كانت بالكاد تنقص. مرّة واحدة فقط، أو مرّتان، درءاً للشّبهات، صببت من تلك القنينة التي لم أكفّ عن تعداد محاسنها، على الرّغم من أنّها كان قد صارت أصلاً مخلوطة.

«بصبرٍ نافذ كنت أنتظر رحيلَ أختي. مع أنّها لم تكن تزعجني. لا بل على العكس من ذلك، كانت تعدّ ليَ الطّعام، وترفو جواربي، وترقّع ملابسي، وتنظّف المطبخَ وكلّ ما اتّسخ. كانت إذن ذات نفعٍ كبير بالنّسبة لي، بالإضافة إلى أنّنا كنا نستمتع، بعدما أغلق المَحلّ، بالحديث جالسَين ونحن نستطعم وجبةً طيّبةً. كانت تنام في الغرفة الصّغيرة هنا، بجانب غرفتي. تنام باكراً، وتظلّ هادئةً. وتبقى الليلةُ كلّها لي، حيث بوسعي أن أذرع غرفتي طولاً وعرضاً، هي والمطبخ والبهو.

«ليكن في علمك يا لوكاس أنّ أختي هي الشّخص الذي أحبّه أكثر من أيٍّ كان في هذا العالم. لقد توفيَ والدانا ونحن بعدُ صغارٌ، خاصّة أنا الذي كنت ما أزال طفلاً. كانت أختي تكبرني بخمس سنواتٍ. وكنّا نعيش بين عدد مبهم من الوالدَين، أخوالٌ وأعمامٌ وعمّات وخالات، لكنّي أستطيع أن أؤكّد لك أنّ أختي هي من ربّاني.

«لم ينقص حبّي لها مع مرور الزّمن. لا يمكن أن أصف لك الفرحة التي تملّكتني وأنا أراها تنزل من القطار. كانت قد مرّت عليّ اثنتا عشرة سنةً دون أن أراها. كانت تلك سنوات الحرب والبؤس والعزلة. وحين استطاعت أن توفّر القليل من النّقود من أجل السّفر، لم تستطع أن تحصّل رخصة عبور الحدود، وهكذا... أمّا أنا، فدائماً ما تكون السيولة المالية لديّ قليلة، وليس بوسعي أن أغلق المكتبة متى شئت. كما أنّها لا تستطيع أن تترك زبائنها فجأةً، إنّها خياطة، والنّساء يحتجن إلى

الخياطة حتى أثناء سنوات الحرب والعوز. يحتجن إلى تحويل سروال الزوج المتوفّى إلى تنّورة قصيرة، وقميصه إلى بلوزة، أمّا ملابس الأطفال، فأيّ قطعة قماش قد تفي بالغرض.

«وحين تمكّنت أختي أخيراً من جمع النّقود اللازمة، وتحصيل الأوراق والرّخص الضرورية، راسلتني تعلمني بوصولها.

قام فيكتور، ونظر من النّافذة:

ـ لم تدقّ العاشرة بعدُ. أليس كذلك؟

قال لوكاس:

ـ بلى، لم تدقّ بعد.

عاد فيكتور إلى الجلوس. صبّ لنفسه المشروب، وأشعل سيجاراً:

ـ كنت أنتظر أختي في محطّة القطار. كانت المرّة الأولى التي أنتظر فيها أحداً في تلك المحطّة. كنت حازماً أمري على انتظار العديد من القطارات إن لزمَ الأمر. لم تصل أختي حتّى القطار الأخير. كانت قد سافرت النّهار بأكمله. بالطّبع عرفتها فوراً، لكنّها كانت مختلفة عن تلك الصورة التي حفظتُها لها في ذاكرتي! لقد صارت قصيرةً جداً. لطالما كانت ضئيلة الحجم، لكن ليس إلى هذا الحدّ. وجهها الجاف، قد صار مليئاً بعشرات التّجاعيد الدّقيقة. باختصارٍ، لقد شاخت كثيراً. بالطّبع، لم أفصح لها عن شيء من ذلك، لقد احتفظت بملاحظاتي لنفسي. أمّا هي، فقد أجهشت باكية وهي تردّد: «آهٍ يا فيكتور، لشدَّ ما تغيَّرتَ! بالكاد استطعت التّعرف عليك. لقد صرتَ بديناً، وسقط شعرك، وصارت رائحتك تشي بالإهمال».

«حملتُ حقائبها. كانت ثقيلةً، مشحونةً ببرطمانات المربّى والنّقانق وماء ـ الحياة المقطّر من المشمش. أفرغت كلّ ذلك في المطبخ. حتّى

twitter @baghdad_library

أنّها أحضرت معها بعض الفاصوليا من حديقتها. تذوّقت ماء ـ الحياة على الفور. بينما تطهو الفاصوليا، شربتُ ما يقارب ربع القنينة. وبعدما غسلت الأواني، لحقت بي إلى غرفتي. كانت النوافذ مشرعةً والجوّ حاراً. كنت مستمراً في الشّرب، وظللت أنتقل إلى النّافذة حيث أدخّن السيجار. كانت أختي تحدّثني عن زبوناتها المتطلّبات، وعن وحدتها وصعوبة حياتها. وكنت أستمع لها محتسياً ماء ـ الحياة، مدخّناً السيجار.

«النّافذة المقابلة فتحت في السّاعة العاشرة. وبرز منها الرّجل ذو الشّعر الأبيض. كان يمضغ شيئاً. دائماً ما يأكل في هذه السّاعة. في العاشرة مساءً يقف في النّافذة ويأكل. كانت أختي مستمرّةً في الحديث. أريتُها غرفتها وقلتُ لها: «لعلّك مرهَقة. لقد قطعتِ مسافةً طويلةً. اِرتاحي». قبّلتني على خديّ، وذهبت إلى الغرفة المجاورة، اضطجعت ونامت، على ما أحسبُ. واصلت الشّربَ، وظللت أذرع الغرفة طولاً وعرضاً وأنا أدخّن السيجار. ومن حين إلى آخر، ألقي نظرةً من النّافذة. أسمعُه يسأل المارّة: «ما السّاعة الآن؟ هل تستطيع أن تخبرني ما السّاعة من فضلك؟». يجيبه أحد المارة: «إنّها الحادية عشرة وعشرون دقيقة».

«لم أنم جيداً. كان حضور أختي الصّامت في الغرفة المجاورة، يزعجني. وفي الصّباح، وكان اليوم يوم أحد، سمعتُ مريضَ الأرق يسأل النّاس مرّةً أخرى عن السّاعة، فيجيبه أحدهم: «إنّها السّابعة إلا ربعاً». لاحقاً، عندما استيقظت، كانت أختي قد بدأت الاشتغال بالمطبخ، والنّافذة المقابلة كانت مُقفلةً.

«ما رأيك يا لوكاس؟ أختي التي لم أرها منذ اثنتي عشرة سنةً تأتي لزيارتي، وأنا أنتظر بصبر نافذٍ أن تنام، حتّى أتمكّن من مراقبة مريضِ

الأرق الذي يعيش بالمنزل المقابل، لأنّه في الواقع الشّخص الوحيد الذي يهمّني أمره، وإن كنتُ أحبُّ أختي أكثر من أيّ كان.

«أنت لا تقول شيئاً يا لوكاس، لكنّي أعرف فيمَ تفكّر. أنت تظنّني أحمق. وأنت محقّ في ذلك. أنا مهووس بهذا الشّيخ الذي يفتح نافذته كلّ مساءٍ في العاشرة، ويُقفلها في السابعة صباحاً. يقضي اللّيل كلّه في نافذته. وبعد ذلك لا أعلم ما يصنع. هل ينام، أم تراه يملك غرفة أخرى أو مطبخاً يقضي به يومه؟ لا أراه البتّة في الشّارع، ولا أثناء النّهار، لا أعرفه، ولم يسبق لي أن استفسرتُ عنه أحداً. أنت أوّل شخصٍ أُثير معه هذا الموضوع. فيمَ يفكّرُ طولَ اللّيلِ مستنداً إلى نافذته؟ كيف السّبيل إلى معرفة ذلك؟ ما إن يحلّ منتصفُ اللّيل حتّى تصير الشّوارع قفراً. لا يعود بوسعه حتّى سؤال المارّة عن السّاعة. لا يستطيع أن يفعل ذلك حتّى السّابعة صباحاً. هل هو حقاً بحاجة إلى معرفة الوقت؟ أيعقل أنّه لا يملك أيّ ساعةٍ أو منبّه؟ كيف يستطيع إذن، والحال كذلك، أن يظهر في النّافذة تمامَ العاشرة؟ أسئلةٌ، من بين أسئلةٍ عديدة أخرى أطرحها بشأنه.

«ذات مساءٍ، وكانت أختي قد رحلت، خاطبني مريض الأرق. كنت واقفاً في نافذتي، أراقب السّماء، محاولاً كشف الغيومِ العاصفة التي كانوا قد أعلنوا عنها أياماً قبل ذلك. حدّثني الشّيخ من ضفّة الشارع الأخرى. قال لي: «ما عادت السّماءُ تُرى. إنّ العاصفة وشيكةٌ». لم أُجبهُ. نظرت إلى مواضع أخرى من الشّارع، يميناً ويساراً. لم أكن أريد أن أربط أيّ علاقةٍ معه. تجاهلته.

«جلست في ركن من غرفتي، لا يستطيع أن يراني منه. أدركتُ إنّي

twitter @baghdad_library

إن بقيت هناك، فلن أفعل شيئاً غير الشرب والتدخين ومراقبة مريض الأرق، ثمّ يأتي عليّ الدّور، وأصير أنا أيضاً مريضَ أرقٍ.

نظر فيكتور من نافذته، ثمّ تهاوى على أريكته مُطلِقاً تنهيدةً:

ـ إنّه هناك. إنّه هناك يراقبني. يتحيّن الفرصة لبدء حديثٍ معي. لكنّي لن أقع في مصيدته. لطالما ألحّ في طلبي، لكنَّ كلِمَتَه لن تكون هي العليا.

قال لوكاس:

ـ اِهدأ يا فيكتور. ربمّا هو ليس إلا خفير ليلٍ متقاعداً، لم يستطع التّخلّص من عادة النوم نهاراً والسّهر ليلاً.

قال فيكتور:

ـ خفيرُ ليل؟ ربّما. لا يهمّ. إذا ما بقيت هنا، سيدمّرني. لقد صرت أصلاً نصفَ مجنون. وقد انتبهتْ أختي إلى ذلك. قبل أن تصعد إلى قطارِ عودتها، قالت لي: «إنّي مسنّةٌ، وما عدت أتحمّل القيام برحلةٍ مماثلةٍ. ينبغي أن نتّخذ قراراً يا فيكتور. إن لم نفعل، فلن نرى بعضنا مرّةً أخرى. سألتها: «أيّ قرارٍ تقصدين؟»، فقالت: «تجارتك راكدة، لقد انتبهت إلى ذلك. تقضي النهار بأكمله في محلّك ولا يكاد يأتيك زبونٌ واحدٌ. مساءً تذرع غرفتك طولاً وعرضاً، وصباحاً تكون منهكاً تماماً. وتشرب كثيراً، لقد شربتَ نصفَ قنينة ماء ـ الحياة التي أتيتك بها. إذا ما استمرّ الوضع هكذا، ستصيرُ مدمن كحول».

«لم أُخبرها أنّي، أثناء فترة إقامتها ببيتي، قد شربت ستَّ قنينات ماء ـ حياةٍ أخرى، بالإضافة إلى قنينات النّبيذ التي نفتحها عند كلّ وجبة طعام. وبالطّبع، لم أخبرها عن مريض الأرق. واصلت كلامها قائلة:

«هيئتك منكرة. حول عيونك هالات سوداءُ. أنت شاحبٌ وسمين. تأكل الكثير من اللّحم، ولا تكاد تتحرّك، ولا تخرج أبداً. أنت تعيش حياةً غير سليمة». قلت: «لا تقلقي بشأني. أنا على أفضل ما يرام». أشعلت سيجاراً. تأخّر القطار. أشاحت أختي بوجهها قَرِفةً: «أنت تدخّن كثيراً. تدخّن باستمرار».

«لم أُخبرها أنّ الأطّباء قد شخّصوا عندي، منذ سنتين، مرضاً شريانياً ناجماً عن التّدخين. لقد اختنق شرياني الحرقفيّ الأيسر، ما عاد الدّم يجري في ساقي اليسرى، أو يكاد يجري بصعوبة، يوجعني خصري، وتوجعني ربلة السّاق، وانعدَم إحساسي بأكبر أصابع قدمي اليسرى. وصف لي الأطّباءُ أدويةً، لكنّها بدون فائدةٍ ما دمتُ لم أتوقّف عن التّدخين، وما دمت لا أمارس التّمارين. لكنْ ليست بي أدنى رغبةٍ في أن أتوقّف عن التّدخين، لا بل إنّني لا أملك حتّى الإرادة لذلك. لا يمكن أن ننتظرَ من مدمن كحولٍ امتلاك الإرادة. هكذا إذن، إذا ما أردت أن أتوقّف عن التّدخين، ينبغي أن أتوقّف أوّلاً عن شرب الكحول.

يعرضُ لي أن أقول لنفسي إنّ عليّ أن أتوقّف عن التّدخين، وعلى الفور أقوم بإشعال سيجارةٍ أو سيجارٍ. وأفكّر في أنّي إن لم أتوقّف عن التّدخين فوراً، فسأشهد قريباً التوقّف التّام للدّورة الدّموية في ساقي اليسرى، ممّا سيتسبّب لي في غرغرينا، وستستتبع الغرغرينا بترَ القدم، أو السّاق بأكملها.

«لم أقل لأختي شيئاً من هذا، حتّى لا أجعلها تقلق بشأني. لكنّها كانت قلقةً أصلاً. بينما تصعد إلى القطار، قبّلتني على خديَّ، وقالت لي: «بِع مكتبتك، والحق بي إلى بلادنا. سنعيش على كفَافِنا ببَيت

twitter @baghdad_library

طفولَتنا. سنقوم بجولاتٍ في الغابة، سأهتمّ بكلّ شيء، وأنت ستتوقّف عن التّدخين والشّرب، ويكون بمقدورك أخيراً أن تكتبَ كتابَك».

«اِنطلق القطار، وعدتُ إلى بيتي، صببتُ لنفسي كأساً من ماء ـ الحياة، وتساءلت عن أيّ كتابٍ كانت تتحدّث.

«مساء ذلك اليوم، تناولت منوّماً بالإضافة إلى أدوية انسداد الشريان المعتادة» وشربت كلّ ما بقيَ من قنينة ماء ـ الحياة التي جلبتها أختي. وكان قد بقيَ منها ما يقارب النّصف لتر. وعلى الرّغم من المنوّم، استيقظتُ باكراً صباح اليوم الموالي، وألفَيْتُني قد فقدتُ الإحساس تماماً بساقي اليسرى. كنت غارقاً في العرق. قلبي يخفق بعنفٍ، يداي ترتعدان، أغوص في خوفٍ وقلقٍ قذرَين. نظرتُ إلى السّاعة لحظةَ استيقاظي، وكانت متوقّفةً. سحبت نفسي حتّى النّافذة ونظرت منها، كان الشّيخ بالبيت المقابل ما يزال هناك. سألته عبر الشارع القفر: «كم السّاعة من فضلك؟ لقد توقّفت ساعتي» اِستدار قبل أن يجيبني، كأنّما ينظر في ساعةٍ ببيته: «إنّها السّادسة والنّصف». أردت أن أرتدي ملابسي، لكنّي انتبهت إلى أنّي كنت أرتديها. لقد نمت بملابسي وحذائي. نزلت إلى الشّارع، وقصدت البقّال الأقرب. كان ما يزالُ مقفلاً. انتظرت أن يفتح، وأنا أجول الشارع طولاً وعرضاً. وصل البائع، وفتح المتجر، وقام بخدمتي. اقتنيت قنينة ماء ـ حياةٍ، دون أن آبه إلى نوعها، ثمّ عدت إلى بيتي. شربت منها كؤوساً فتبدّد قلقي. وكان الرّجل في البيت المقابل، قد أغلق نافذته.

«نزلت إلى المكتبة، وجلست إلى منضدتي. لم يكن ثمّةَ أيّ زبونٍ. الموسم ما يزال صيفاً، النّاس في عطلة، ولا أحد يحتاج كتاباً أو أيّ

شيء. جالساً هناك، أتأمّل الكتب على الرّفوف، تذكّرت كتابي، الكتاب الذي تحدّثت عنه أختي، الكتاب الذي كنت أنوي تأليفه أيام مراهقتي. كنت أطمح إلى أن أصير كاتباً، أن أؤلّف كتباً. كان ذلك حلمَ شبابي، ولطالما تحدّثنا أنا وأختي في الأمر. كانت هي تؤمن بي، وأنا أيضاً كنت مؤمناً بنفسي. لكنّ ذاك الإيمان ظلّ ينقص شيئاً فشيئاً، ثمّ ما لبثتُ أن نسيتُ تماماً حُلم تأليف الكتب ذاك.

«سنّي لا يتجاوز الخمسين. وإذا ما توقّفت عن التدخين والشّرب، أو بالأحرى عن الشرب والتّدخين، سيكون بوسعي أن أكتب كتاباً. ليس بمقدوري أن أؤلّف كُتباً، لكنّي أستطيع تأليف كتابٍ واحد. لديَّ قناعةٌ يا لوكاس، بأنّ أيّ إنسانٍ إلاّ وَوُلد ليكتبَ كتاباً، ولم يولد لسبب غير ذلك. قد يكون كتاباً رائعاً، أو يكون متواضعاً، لا يهمّ، المهم هو أنّ من لا يكتب كتابه، لن يكون سوى كائنٍ ضائعٍ، كائن مرّ فوق هذه الأرض دون أن يُخلّفَ أثراً.

«إذا ما بقيت هنا، فلن أكتب كتابي أبداً. أملي الوحيد هو أن أبيع المنزل والمكتبة وألحق بأختي. ستمنعني من الشرب والتّدخين، سنعيش حياةً سليمة، ستهتم هي بكلّ شيء، وبعد أن أتخلّص من إدمان الكحول والسّجائر، لن يكون عليّ القيام بأيّ شيء سوى تأليف كتابي. أنت أيضاً يا لوكاس تكتب كتاباً. عمّن تكتب؟ عمَّ تكتب؟ لست أدري. لكنّك تكتب. لم تتوقّف، منذ كنتَ طفلاً، عن شراء الأوراق والأقلام والدّفاتر.

قال لوكاس:

ـ أنت مُحقٌّ يا فيكتور. الكتابة هي أهمّ ما في الوجود. حدّد السّعرَ،

twitter @baghdad_library

وسأشتري منك المنزل والمكتبة. بعد أسابيع سيكون بمقدورنا إبرام الصّفقة.

سأله فيكتور:

ـ ما الأشياء الثمينة التي قلتَ إنّك تملكها؟

ـ قطع ذهبيّة وفضيّة. وأيضاً مجوهراتٍ.

اِبتسم فيكتور:

ـ أتريد تفقّد المنزل؟

ـ ليس ضرورياً. سأقوم فيه بالإصلاحات الضرورية. وهاتان الغرفتان تكفياننا نحن الاثنان.

ـ كنتم ثلاثة على ما أذكر.

ـ لم نعد سوى اثنين. لقد رحلت والدة الطّفل.

قال لوكاس للطّفل:

ـ سنرحل من هذا البيت. سنسكن المدينة، في ساحة برانسيبال. لقد اشتريت المكتبة.

قال الطّفل:

ـ جيد. سأكون أكثر قرباً من المدرسة. لكن حين تعود ياسمين، كيف ستجدنا؟

ـ في مدينة صغيرة كهذه، سيسهل عليها العثور علينا.

سأله الطّفل:

ـ ألن يكون لنا هناك حيوانات أو حديقة؟

ـ ستكون لنا حديقةٌ صغيرة. سنحتفظ بالكلب والقطّ، وأيضاً ببعض الدّجاجات من أجل البيض. أمّا باقي الحيوانات، فسنبيعها لجوزيف.

ـ أين سأنام؟ هناك لا توجد غرفة الجدّة.

ـ ستنام في غرفة صغيرة، بجوار غرفتي. سنكون قريبَين جداً من بعضنا.

ـ دون الحيوانات ومحاصيل البستان، أنّى لنا أن نعيش؟

ـ من عائدات المكتبة. سأبيع أقلاماً وكتباً وأوراقاً. وبإمكانك أن تساعدني.

ـ أجل، سأساعدك. متى نرحل؟

ـ غداً. سيأتي جوزيف بعربته.

اِستقرّ لوكاس والطّفل بمنزل فيكتور. أعاد لوكاس طلاء جدران الغرف، فصارت وضّاءةً ونظيفة. بجانب المطبخ، في الغرفة الصغيرة القديمة، أقام لوكاس حمّاماً.

سأله الطّفل:

ـ هل أستطيع الاحتفاظ بالهيكلَين العظميّين في غرفتي؟

ـ مستحيل. تصوّر، لو أنّ أحدهم يدخل غرفتك.

ـ لن يدخل غرفتي أحد. ما خلا ياسمين حين تعود.

قال لوكاس:

ـ حسناً. بإمكانك الاحتفاظ بالهيكَلَين. لكنّنا سنخفيهما مع ذلك، خلف ستار.

twitter @baghdad_library

أصلح لوكاس والطّفلُ الحديقةَ التي كان فيكتور قد أهملها. أشار الطّفل إلى شجرة:

ـ أُنظر يا لوكاس إلى هذه الشّجرة. كم هي سوداء!

قال لوكاس:

ـ إنّها شجرةٌ ميّتة. ينبغي قطعها. الأشجار الأخرى أيضاً تفقد أوراقها، لكنّ هذه قد ماتت.

كثيراً ما يستيقظ الطّفل في كبد اللّيل، يهرع إلى غرفة لوكاس، وإذا لم يكن لوكاس هناك، ينتظره الطّفل في السّرير، كي يحكيَ له كوابيسه. يرقد لوكاس لصق الطّفل، يضمّ إليه الجسدَ الصّغير النّاحل حتّى يسكن اضطرابه.

يحكي الطّفل كوابيسَه، تتكّرر الكوابيس نفسها، وتقضّ لياليه باستمرار.

أحد تلك الكوابيس، كابوس النّهر. يرى الطّفل نفسه راقداً على صفحة الماء، محدِّقاً في النّجوم يسلم نفسه للأمواج. الطّفل سعيد، لكن رويداً يقترب منه شيء، شيء مخيف، وفجأةً ينتصب ذاك الشيء أمامه، لا يعلم الطفل ما هو، الشيء ينفجر ويصيح ويصرخ ويغشى البصرَ.

ثمّة حلمٌ آخر، هو حلم النّمر الرّاقد جنب سرير الطّفل. يبدو النّمر نائماً، هادئاً ولطيفاً، وتستبدّ بالطّفل الرّغبة في مداعبته. بيد أنّه خائفٌ مع ذلك. تتزايد رغبة الطّفل في مداعبة النّمر، حتّى لا يعود بمقدوره مقاومتها. تبدأ أصابعه في تلمّس وبر النّمر النّاعم، وبضربةٍ واحدةٍ من قائمته يبتر النّمر ذراعه.

حلمٌ ثالثٌ، حلم الجزيرة القفر. يلعب الطّفل في الجزيرة بعربته.

يملؤها رملاً، ويحمل الرّمل إلى مكانٍ آخر، يفرغ عربته، ويتقدّم أبعدَ، يملأ عربتَه، يفرغها مرّة أخرى، وهكذا دوالَيك، يظلّ يفعل ذلك طويلاً، وفجأةً، يهبط اللّيل، الجوّ باردٌ، وليس ثمّة أحد، وحدها النّجوم تبرق وسط عزلتها اللانهائية.

حلم آخر: يرغب الطّفل في العودة إلى منزل الجدّة. يمشي في الطّرقات، لكنّه لا يستطيع التّعرف على طرقات المدينة، يتيه، الشوارع قفرٌ، لا يوجد المنزل حيث ينبغي له أن يكون، الأشياء ليست في مواضعها، تناديه ياسمين باكيةً فلا يعرف أيّ شارعٍ، أو أيّ طريق، عليه أن يسلكه للّحاق بها.

أمّا أشدّ الأحلام رعباً، فهو حلم الشجرة الميتة، الشجرة السوداء بالحديقة. يتأمّل الطّفل الشّجرة، فتمدّ إليه الشجرةُ أغصانَها العارية. تقول الشّجرة: «لستُ سوى شجرة ميّتة، لكنّي أحبّك قدرَ حبّي لك حين كنت حيّةً. تعالَ يا صغيري، تعالَ بين ذراعيَّ». تتكلّم الشجرة بصوت ياسمين، يقترب الطّفل، فتتشابك الأغصان السوداء الميّتة وتخنقه.

قطع لوكاس الشجرة، جعلها حطباً، وأضرم فيها النّار بالحديقة. وحين خمدت النّار، قال الطّفل:

ـ لم تعد الآن سوى كومةٍ من رماد.

ذهب إلى غرفته. فتح لوكاس قنينة ماء ـ حياة. شرب منها. أخذه الدوّار. عاد إلى الحديقة، وتقيّأ. وكان دخانٌ أبيض ما يزالُ يرتفع من بين الرّماد الأسود، بيد أنّ قطرات مطر كبيرة بدأت تتساقط، وأنهى الصَيِّبُ عملَ النّار.

twitter @baghdad_library

بعد ذلك بمدّة، أتى الطّفل إلى لوكاس الذي كان ممدّداً على العشب النديّ، وسط بركة وحل. رجّ الطّفلُ لوكاس:

ـ قُم يا لوكاس. ينبغي أن تدخل إلى البيت. السّماء تمطر. الليل هبط. الجو باردٌ. هل تستطيع المشي؟

قال لوكاس:

ـ دعني هنا. عُد إلى بيتك. غداً سيكون كلّ شيء على ما يرام.

جلس الطّفل بجانب لوكاس، ولبث منتظراً.

أشرقت الشّمس، ففتح لوكاس عينيه:

ـ ما الذي حدث يا ماتياس؟

أجابه الطّفل:

ـ كابوس آخر، ليس إلاّ.

٥

ظلّ مريض الأرق مداوماً على الظّهور عند نافذته في العاشرة من كلّ مساء. الطفلُ قد نام، وها لوكاس يخرج من منزله، فيسأله مريضُ الأرق عن السّاعة، ويجيبه لوكاس، ثمّ يقصد بيت كلارا. ولدى عودته فجراً، سأله مريضُ الأرق عن السّاعة مرّةً أخرى. فأجابه، ثم انصرف لينام. ساعات بعد ذلك، انطفأ النّور في غرفة مريض الأرق، واجتاحت الحماماتُ النّافذةَ.

وذات صباح، بينما لوكاس عائدٌ إلى منزله، ناداه مريض الأرق:

ـ سيّدي!

فقال لوكاس:

ـ إنّها الخامسة.

ـ أعلم ذلك. السّاعة لا تهمّني. هي فقط ذريعة لبدء الحديث مع النّاس. أردت فقط أن أخبرك أنّ الطّفل كان مضطرباً جداً هذه اللّيلة. لقد استيقظ حوالي السّاعة الثانية صباحاً، وذهب مرّات عديدة إلى غرفتك، ونظر طويلاً من النّافذة. حتّى أنّه خرج إلى الشّارع، وذهب قبالة الحانة، ثمّ ما لبث أن عاد ونام على ما أعتقد.

ـ هل يحدث كثيراً أن يقوم بهذا؟

twitter @baghdad_library

ـ يستيقظ كثيراً، أجل. يكاد يستيقظ كلّ ليلة. لكنّها المرّة الأولى التي أراه يخرج فيها من البيت ليلاً.

ـ لا يغادر البيت حتّى أثناء النّهار.

ـ أحسب أنّه كان يبحث عنك.

صعد لوكاس إلى الشقّة، وكان الطّفل ينام عميقاً في سريره. نظر لوكاس عبر النّافذة. سأله مريض الأرق:

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ أجل، إنّه نائم. وأنت؟ ألا تنام إذن أبداً؟

ـ أغفو من حين إلى آخر. لكنّي لا أنام تماماً أبداً. منذ ثماني سنوات ما عدت أنام.

ـ ما الذي تفعله أثناء النّهار؟

ـ أتجوّل. وحين أشعر بالتّعب، أستريح على مقعد حديقة. أقضي جلّ نهاري في حديقة. هناك، أنام أحياناً لدقائق، جالساً على مقعد. أترغب في مرافقتي يوماً مّا؟

ـ الآن، إن رغبتَ في ذلك.

ـ اِتّفقنا. سأطعم حماماتي وأنزل.

مشيا بين الأزقّة الخالية بالمدينة النائمة، في اتّجاه منزل الجدّة. توقّف مريض الأرق أمام بضعة أمتار مربّعة من العشب المصفرّ، عليه شجرتان مدّتا أغصانهما العارية.

ـ هي ذي حديقتي. المكان الوحيد الذي أستطيع أن أغفو به لبرهةٍ.

جلس الشيخ على المقعد الوحيد قرب نافورة نضب ماؤُها، وغطّتها الطحالب والصّدأ. قال لوكاس:

ـ ثمّة بالمدينة حدائق أجمل من هذه.

ـ ليست كذلك بالنّسبة لي.

رفع عصاه وأومأ بها إلى منزلٍ كبيرٍ جميل:

ـ كنت أسكن هناك، صحبة زوجتي.

ـ هل ماتت؟

ـ لقد قُتلت برصاصات عديدة من مسدّس، ثلاثَ سنواتٍ بعد انتهاء الحرب. حدث ذلك ذات مساءٍ، وكانت السّاعة العاشرة.

جلس لوكاس بجانب الشّيخ:

ـ إنّي أذكرها. كنّا نسكن قرب الحدود. كنّا قد دأبنا، أثناء عودتنا من المدينة، على التّوقّف هنا، لشرب الماء والاستراحة. وحين كانت زوجتك تلمحنا من النّافذة، كانت تنزل حاملةً لنا قطعاً كبيرةً من السّكر والبطاطس. منذ ذاك الزّمن لم آكل مثل ذلك الطّعام. ما زلت أذكر أيضاً ابتسامتها ولكنتَها، وأيضاً واقعة اغتيالها. كلّ المدينة كانت تتحدّث عن الأمر.

ـ ماذا كانوا يقولون؟

ـ قيل إنّهم قتلوها، كي يستطيعوا تأميم مصانع النّسيج الثلاثة التي كانت تملكها.

قال الشّيخ:

ـ لقد ورثت تلك المصانع عن والدها. وأنا كنت أعمل بها مهندساً. تزوجتها، وبقيَت معي، هنا. كانت تحبّ هذه المدينة كثيراً. لكنّها احتفظت، مع ذلك، بجنسيّتها، فما كان أمام«هم» سوى اغتيالها. كان ذلك الحلّ الوحيد بالنّسبة لهم. قتل«و»ها في غرفة نومنا. سمعت طلقات

twitter @baghdad_library

الرّصاص بينما كنت في الحمّام. القاتل دخل الغرفة وغادرها من النّافذة. تلقّت رصاصات في الرّأس والصّدر والبطن. أفضى التحقيق إلى أنّ القاتلَ عاملٌ تمّ تسريحه، وأنّه فعل فعلته بدافع الانتقام، ثمّ فرّ إلى الخارج عابراً الحدود.

قال لوكاس:

- في ذلك الزّمن، كانت الحدود غير قابلة للاجتياز، وما كان ثمّة عاملٌ يملك مسدساً.

أغمض مريض الأرق عينيه، وصمت. سأله لوكاس:

- هل تعلم من صار يسكن منزلكم اليوم؟

- لقد صار مليئاً بالأطفال. تمّ تحويله إلى ميتم. عليك أن تعود إلى البيت يا لوكاس، سيستيقظ ماتياس بعد قليل. وعليك أن تفتح المكتبة.

- أنت محقّ، إنّها السابعة والنّصف.

بين الفينة والأخرى، يعود لوكاس إلى الحديقة ليدردش مع مريض الأرق. يحدّثه المسنّ عن ماضيه، عن ماضيه السّعيد برفقة زوجته:

- كانت تضحك طيلة الوقت. كانت سعيدة، خليّة البال، مثل طفلٍ. كانت تحبّ الفواكه والزهور والنّجوم والغيوم. ساعة الغروب، كانت تخرج إلى الشرفة لتراقب السّماء. كانت تقول إنّه لا وجود في العالم كلّه لغروب شمسٍ يضاهي روعة الغروب في مدينتنا، لا يمكن أن تكون ألوان السّماء في مكان آخر، أكثر ألقاً وجمالاً ممّا هي عليه هنا.

أغلق الرّجل عينيه التي أحرقها الأرق وأحاطها بالهالات السوداء. وأكمل الحديث بصوتٍ بادٍ عليه التأثّر:

ـ عقبَ مقتلها، أتى بعض الموظّفين للحجز على المنزل، وعلى كلّ ما يحتويه: الأثاث، الأواني، الكتب، مجوهرات زوجتي وفساتينها. لم يسمحوا لي بأخذ شيءٍ، ما عدا حقيبةً تضمّ بعضاً من ملابسي. نصحوني بأن أترك المدينة. فقدت عملي بالمصنع، صرت بلا عمل ولا بيت ولا مال.

«قصدت أحد أصدقائي، وكان طبيباً. هو نفسه الصّديق الذي كنت قد طلبته ليلة القتل. أعطاني مالاً أستقلُّ به القطار، وقال لي: «لا تعد إلى هذه المدينة أبداً. كونك ما تزال حياً، هو معجزة».

«ركبت القطار، ووصلت إلى مدينةٍ مجاورة. جلست في قاعة الانتظار بالمحطّة. وكان ما يزال لديّ من المال ما يكفي لكي أذهب أبعد، حتّى العاصمة ربّما. لكن ما كان لديّ ما أصنعه بالعاصمة، ولا بأيّ مدينة أخرى. اِقتنيت تذكرة من الشّباك، وعدت إلى هنا. طرقت باب أحد البيوت المتواضعة قبالة المكتبة. وكنت أعرف كلّ عمّال مصانعنا. كنت أعرف المرأة التي فتحت الباب. لم تسألني عن شيء، قالت لي فقط: أدخل. وقادتني إلى غرفة: «بوسعك أن تظلّ هنا ما شئت يا سيّدي».

«كانت امرأةً مسنّة، فقدت زوجها وولدَيها وابنتَها في الحرب. لم يكن سنّ ابنتها يتجاوز السّابعة عشرة. ماتت في الجبهة، حيث كانت قد تطوّعت ممرّضةً بعدما تعرّضت لحادثةٍ شوّهت وجهَها. بشكل عامٍّ لم تكن آوِيَتي تتحدّث، كانت تكاد لا تتحدّث البتّة. كانت تتركني وشأني في غرفتي التي تفضي إلى الشّارع، بينما تشغل هيَ غرفةً تفضي إلى الحديقة. وكان المطبخ أيضاً يفضي إلى الحديقة. كان بوسعي أن أذهب إليه متى شئت، ودوماً أجد طعاماً ساخناً بالفرن. وكلّ صباح أجد حذائي

twitter @baghdad_library

مُلمَّعاً، قمصاني نظيفةً ومكويّة، موضوعةً بالرّدهة على كرسيٍّ أمام باب غرفتي. لم تكن آويتي تدخل قطّ إلى غرفتي، ونادراً ما كنت أصادفها. لم تكن ساعاتنا واحدةً. وما كنت أعرف كيف تكسب عيشها. أحسب أنّها كانت تعتاش من مدخولها كأرملة شهيد حرب، ومن محصول حديقتها الصّغيرة.

«شهوراً بعد استقراري ببيتها، قصدتُ مكتب البلديّة، وطلبت أيّ عملٍ. أرسلني الموظّفون من مكتبٍ إلى آخر، وكانوا جميعهم خائفين من اتّخاذ قرارٍ بشأني. كنتُ شخصاً مريباً، بسبب زواجي من أجنبيّة. وفي نهاية المطاف، كان سكرتير الحزب، بيتر، هو من منحني وظيفةً، وظيفةَ عاملٍ متعدّد المهام. عملتُ بوّاباً ومنظّفَ زجاج وبلاط، كنّاساً للغبار والأوراق الميّتة والثلج. بفضل بيتر صار لي الحقّ، مثل الجميع، في التّقاعد والحصول على معاشٍ مثل الجميع. لن ينتهي بيَ المطافُ متسوّلاً، وصار بمقدوري إنهاء أيّامي في هذه المدينة حيث وُلدتُ وعشتُ طيلة حياتي.

«حين حصلت على أوّل مرتّب، وضعته مساءً على طاولة المطبخ، كان مبلغاً تافهاً، لكنّه كانَ ثروةً بالنّسبة لآويَتي، ثروةً كبيرةً بالنّسبة لها. تركَت نصفَه على الطّاولة، وسرنا على هذا المنوال: أنا أضع معاشي البسيط كلّ شهر بجانب صحنها؛ وهيَ، تعيد نصفَ المبلغ بالضّبط، تضعه بجانب صحني.

خرجت من المَيتم امرأةٌ متلفّعةٌ بشالٍ كبيرٍ، كانت ضامرة الجسم وشاحبةً، وفي وجهها البارز العظام تلمع عينان كبيرتان. توقّفت أمام المقعد، ونظرت إلى لوكاس مبتسمةً، ثمّ قالت للشّيخ:

ـ أرى أنّك وجدتَ صديقاً.

ـ أجل، صديق. أقدّم لك لوكاس يا جوديث. هو صاحب المكتبة بساحة برانسيبال. أمّا جوديث يا لوكاس، فمديرةُ هذا الميتم.

قام لوكاس، وصافحته جوديث:

ـ يجب أن أشتري كُتباً لأطفالي، لكنّي منشغلةٌ كثيراً، وميزانيتي صغيرةٌ جداً.

قال لوكاس:

ـ أستطيع أن أبعث لك بعض الكتب مع ماتياس. ما سنّ أطفالك؟

ـ من خمس سنوات إلى عشر. من هو ماتياس؟

قال الشّيخ:

ـ لوكاس أيضاً يعتني بطفلٍ يتيم.

قال لوكاس:

ـ ماتياس ليس يتيماً. لقد رحلت أمّه. هو الآن ابني.

اِبتسمت جوديث:

ـ أطفالي أيضاً ليسوا كلّهم يتامى. أغلبهم، وُلدوا لآباء مجهولين، وتخلّت عنهم أمّهاتهم المغتصبات أو المومسات.

جلست بجانب الشّيخ، وأرخت رأسها على كتفه، ثمّ أغمضت عينيها:

ـ ينبغي أن نعدّ التدفئة يا مايكل. إذا لم يتغيّر الجوّ، فسنبدأ يوم الاثنين.

ضمّها الشّيخ إليه:

ـ حسناً يا جوديث. سأكون هنا يوم الاثنين في الخامسة صباحاً.

أخذ لوكاس ينظر إلى المرأة والرّجل، متعانقين، بعيون مغمضة، في

twitter @baghdad_library

برد هذا الصّباح الخريفيّ النديّ، يلفّهما صمت مدينةٍ منسيّةٍ تماماً. خطا بضع خطواتٍ مبتعداً دون أن يحدث صوتاً، لكنّ جوديث ارتعدت وفتحت عينيها ثمّ قامت من مقعدها:

ـ اِبقَ يا لوكاس. سيستيقظ الأطفال، ينبغي أن أحضّر لهم الفطور.

قبّلت الشّيخ على جبينه:

ـ موعدنا الاثنين يا مايكل. إلى اللّقاء يا لوكاس، وشكراً مقدّماً على الكتب.

عادت إلى المنزل، وجلس لوكاس مرّة أخرى:

ـ إنّها جميلةٌ جداً.

ـ نعم جميلة جداً.

ضحك مريض الأرق، ثمّ قال:

ـ في البداية كانت حذرةً منّي. كانت تراني هنا كلّ يوم، جالساً على هذا المقعد. وكانت تحسبني متلصّصاً. وذات يومٍ أتت إليَّ، وجلست بجانبي، ثمّ سألتني ما كنت أفعله هنا. حكيتُ لها كلّ شيء. حدث ذلك عند بداية شتاء السنة المنصرمة. طلبت منّي أن أساعدها في تدفئة الغرف، ما كان لها من معين سوى مساعدة مطبخ في السادسة عشرة من عمرها. ليست ثمّة تدفئة مركزية بالمنزل، وإنّما توجد بكلّ غرفةٍ مدفأةٌ من خزف. هي سبع مدفآت في المحصّلة. لو بوسعي أن أصف لك مدى السّعادة التي غمرتني وأنا أدخل مجدّداً إلى منزلنا، إلى غرفنا! وأيضاً وأنا أساعد جوديث. إنّها امرأة عركَها الدّهر. فقدت زوجها في الحرب، وهي أيضاً تمّ ترحيلها، وشارفت أبواب الجحيم. ليس ما أقوله مجازاً. لقد اضطرمت نارٌ حقيقيّة خلف أبواب بيتها، نارٌ أضرمها بشرٌ ليحرقوا فيها أجسادَ بشرٍ آخرين.

قال لوكاس:

ـ أعرف عمّا تتحدّث. رأيت بأمّ عيني أشياء مشابهة، في هذه المدينة نفسها.

ـ لا بدّ أنّك كنت صغيراً يومئذ.

ـ لم أكن سوى طفلٍ. لكنّي ما نسيت شيئاً.

ـ ستنسى. الحياة هكذا. الزمن يمحو كلّ شيء. الذكريات تخفت، والألم يضمحلّ. أتذكّر زوجتي، مثلما يتذكّر المرء طائراً، أو وردة. كانت معجزةَ الحياة، في عالم يبدو كلّ شيء فيه خفيفاً، وطيّعاً وجميلاً. في البداية كنت أقصد هذا المكان لأجلها، والآن صرت أقصده لأجل جوديث، لأجل النّاجية. قد يبدو لك الأمر سخيفاً يا لوكاس، لكنّي مغرم بجوديث. مغرم أنا بقوّتها وطيبتها وحنانها على هؤلاء الأطفال الذين ليسوا أبناءها.

قال لوكاس:

ـ لا يبدو لي الأمر سخيفاً بالمرّة.

ـ وأنا في هذه السنّ؟

ـ ليس السنّ سوى تفصيلٍ. وحده الأساسيّ يهمّ. أنت تحبّها، وهي أيضاً تحبّك.

ـ إنّها تنتظر عودة زوجها.

ـ كثيرات هنّ النّساء اللواتي ينتظرن أو يبكين أزواجهن اللّذين ماتوا أو اختفوا. لكنّك قلت قبل قليل: «إنّ الألم يضمحلّ، والذكريات تخفت».

رفع مريض الأرق عينيه إلى لوكاس:

ـ قلت إنّها تضمحلّ وتخفت، لكنّي لم أقل أنّها تتبدّد.

twitter @baghdad_library

صباح اليوم نفسه، انتقى لوكاس بعض كتب الأطفال، ووضعها في علبة كرتون وقال لماتياس:

ـ هل تستطيع أن توصل هذه الكتب إلى الميتم الذي يقع قرب الحديقة، على الطريق المفضي إلى بيت الجدّة؟ إنّه منزل ضخم بشرفة، وثمّة نافورةٌ قبالته.

قال الطّفل:

ـ أعلم أين يقع.

ـ المديرة اسمها جوديث، ستعطيعها الكتب من طرفي.

اِنطلق الطّفل حاملاً الكتب، ثمّ ما لبث أن عاد. سأله لوكاس:

ـ كيف بدت لك جوديث، والأطفال؟

ـ لم أرَ لا جوديث ولا الأطفال. لقد وضعت الكتب أمام الباب.

ـ ألم تدخل؟

ـ كلاّ. ولمَ سأدخل؟ لكي يحبسوني هناك؟

ـ ماذا؟ ما الذي تقوله يا ماتياس؟

أغلق الطفل غرفته على نفسه. بقي لوكاس في المكتبة حتّى ساعة الإغلاق، ثمّ أعدّ وجبة العشاء، وأكل بمفرده. استحمّ، وبينما يرتدي ملابسَه خرج الطّفل بغتةً من غرفته.

ـ هل ستخرج يا لوكاس؟ إلى أين تذهب كلّ مساء؟

قال لوكاس:

ـ أذهب لأعمل. أنت تعرف ذلك.

اِستلقى الطفل على سرير لوكاس:

ـ سأنتظرك هنا. إذا ما كنت تعمل بالحانات، فستعود ساعة إغلاقها، أي منتصف اللّيل. لكنّك تعود بعد ذلك بوقت متأخّر.

جلس لوكاس على الكرسيّ قبالة الطّفل:

ـ أجل يا ماتياس، أنت محقٌّ. أنا أعود متأخّراً. لديّ أصدقاء أعرّج عليهم في بيوتهم بعد إغلاق الحانات.

ـ أيّ أصدقاء؟

ـ أنت لا تعرفهم.

قال الطّفل:

ـ كلّ ليلة أظلّ وحيداً.

ـ ليلاً، ينبغي أن تنام.

ـ سأنام، إن عرفت أنّك هنا بغرفتك، نائمٌ أنت أيضاً.

اِستلقى لوكاس بجانب الطّفل، وقبّله:

ـ أوَ كنت تحسبُ حقاً، أنّني أرسلتك إلى الميتم كي يبقوك هناك؟ أنى لك أن تصدّق هذا؟

ـ لا أعتقد ذلك حقاً. ومع ذلك، حين بلغت الباب، تلبّسني الخوف. لا أحد يدري. ياسمين أيضاً كانت قد وعدتني بأنّها لن تتركني أبداً. لا ترسلني إلى هناك مرّةً أخرى. لا أحبّ السير في اتّجاه منزل الجدّة.

قال لوكاس:

ـ أتفهّمك.

قال الطّفل:

twitter @baghdad_library

ـ اليتامى هم الأطفال الذين ليس لهم والدان. أنا أيضاً ليس لديّ والدان.

ـ بلى. لديك أمّ، ياسمين.

ـ ياسمين رحلت. وأبي؟ أين هو؟

ـ أبوك، هو أنا.

ـ أقصد الآخر؟ الحقيقي؟

صمت لوكاس برهةً قبل أن يجيب:

ـ لقد توفيَ قبل ولادتك، قضى في حادث مثل والدي.

ـ الآباء يموتون دائماً في حوادث. أنت أيضاً ستتعرّض لحادث؟

ـ كلاّ. أنا حريصٌ جداً.

يعمل لوكاس والطّفل في المكتبة. يحمل الطفل كتباً في صندوق كارتون، ويمدّها إلى لوكاس الذي، واقفاً على سلّم مزدوج، يرتّبها على رفوف مكتبة. الوقتُ صباحٌ خريفيّ ماطرٌ.

دخل بيتر إلى المجلّ. كان يرتدي عباءةً بقبّعة، وكان المطر يسيل على وجهه وعلى الأرض. من تحت عباءته أخرج حزمةً مغلّفة بقماشٍ من الخيش:

ـ هاك يا لوكاس. أنا أعيدها لك. لا أستطيع الاحتفاظ بها. ما عاد بيتي آمناً.

قال لوكاس:

ـ أنت شاحبٌ يا بيتر. ما الذي يجري؟

ـ أنت لا تقرأ إذن الجرائد؟ لا تسمع الراديو؟

ـ لا أقرأ الجرائد البتّة، ولا أسمع إلا أسطوانات قديمة.

اِستدار بيتر شطرَ الطّفل:

ـ أهوَ ولد ياسمين؟

قال لوكاس:

ـ أجل، إنّه ماتياس. سلّم على بيتر يا ماتياس. إنّه صديق.

صمت الطّفل محدّقاً في بيتر.

قال بيتر:

ـ لقد سلّم عليّ ماتياس بعينيه.

قال لوكاس:

ـ اِذهب لتطعم الحيوانات يا ماتياس.

خفض الطّفل بصره، وأخذ يقلّب في علبة الكتب:

ـ ليس هذا وقت إطعام الحيوانات.

قال لوكاس:

ـ أنت مُحقٌّ. اِبقَ هنا، وأعلمني إذا ما أتى أحد الزّبائن.

صعدا معاً إلى غرفة لوكاس.

قال بيتر:

ـ إنّ عَينَي هذا الطّفل رائعتين.

ـ أجل، إنّ له عيني ياسمين.

مدّ بيتر الحزمة للوكاس:

ـ تنقص دفاترَك بعضُ الصفحات يا لوكاس.

twitter @baghdad_library

ـ أجل يا بيتر. لقد أخبرتك أنّني أقوم ببعض التصحيحات، وأمحو، وأحذف كلّ ما يبدو لي غير ضروريّ.

ـ أنت تصحّح، وتمحو، وتحذف. لن يفهم أخوك كلاوس شيئاً.

ـ كلاوس سيفهم.

ـ أنا أيضاً فهمت.

ـ ألِهذا تريد أن تعيدها إليّ؟ لأنّك تظنّ أنك فهمتَ؟

قال بيتر:

ـ إنّ ما يحدث لا علاقة له بدفاترك يا لوكاس. إنّ ما يحدث أخطر من ذلك بكثير. ثمّة عصيانٌ يتحضّر في بلادنا. ثورةٌ ـ مضادّة. لقد بدأ الأمر مع المثقّفين الذي بدؤوا يكتبون أشياء ما كان عليهم أن يكتبوها. وتواصل الأمر مع الطّلبة. الطّلبة دائماً على أهبة إشعال الفوضى. لقد نظّموا مظاهرةً أفضت إلى أحداثِ شغبِ ضدّ قوّات حفظ النّظام. لكنْ، متى صار الأمر خطيراً حقّاً؟ صار كذلك فقط حين انضمّ إلى الطلبة العمّالُ، لا بل وحتّى منشقّون من جيشنا. أمس، قام عساكرُ بتسليح أفرادٍ غير مسؤولين. النّاس يطلقون النّار على بعضهم بالعاصمة، والحِراك بدأ يتّسع ويصل المناطق المجاورة وطبقةَ الفلاّحين.

قال لوكاس:

ـ هذا يعني أنّ الحراك يجمع كلّ أطياف الشّعب.

ـ ما عدا طبقةٍ واحدة: الطّبقة التي أنتمي إليها.

ـ عددكم قليل مقارنةً بمن هم ضدّكم.

ـ بلا ريب. لكنّ لدينا حلفاء أقوياء.

صمت لوكاس. فتح بيتر الباب:

ـ مؤكّد أنّنا لن نلتقي مرّةً أخرى يا لوكاس. لنفترق دون بغض.

سأله لوكاس:

ـ إلى أين أنت راحلٌ؟

ـ على قادة الحزب الاحتماء بجيش الأجانب.

قام لوكاس، شدّ بيديه على كتفَي بيتر، وحدّق في عينيه:

ـ أخبرني يا بيتر! ألا تشعر بالعار؟

أمسك بيتر بيدَي لوكاس، ووضعها على وجهه. ثمّ أغمض عينيه وقال بصوتٍ خفيضٍ:

ـ بلى يا لوكاس. أشعر بمهانةٍ عميقة.

أفلتت من عينيه المغمضتَين بضع دمعات.

قال لوكاس:

ـ كلاّ! لا تبكِ. تمالك نفسك.

رافق لوكاس بيتر إلى الشارع. وشيّعَ بناظره الشبح الأسود وهوَ يبتعد، خفيض الرأس، صوبَ المحطّة.

عندما عاد لوكاس إلى المكتبة، قال له الطّفل:

ـ ما أجمل هذا الرّجل! متى سيعود؟

ـ لا أدري يا ماتياس. ربما لن يعود أبداً.

مساءً، ذهب لوكاس عند كلارا. دخل البيت المطفأةِ مصابيحُه جميعها. كان سرير كلارا بارداً وفارغاً. أشعل لوكاس مصباح المنضدة. وجد على الوسادة رسالة من كلارا:

«أنا ذاهبة لكي انتقم لتوماس».

twitter @baghdad_library

عاد لوكاس إلى بيته. وجد الطفل على سريره. قال له:

ـ ما عدت أتحمّل وجودك كلّ ليلة على سريري. هيا اذهب إلى غرفتك، ونَم!

أخذ ذقن الطفل يرتعد، وبدأ يحشرج:

ـ سمعت بيتر يقول إنّ النّاس بالعاصمة يتبادلون إطلاق النّار. هل تعتقد أنّ ياسمين في خطر؟

ـ كلاّ، ياسمين ليست في خطر. لا تقلق.

ـ لقد قلتَ إنّ بيتر لن يعود ربما أبداً. هل تعتقد أنّه سيموت؟

ـ كلاّ لا أعتقد. لكنّي متأكّد من أنّ كلارا ستموت.

ـ من كلارا؟

ـ صديقة. اِذهب إلى فراشك يا ماتياس، ونم! أنا متعب!

لا يكاد يحدث شيء في المدينة. الأعلام الأجنبية تختفي من فوق البنايات الحكومية، كما تختفي نُصب القادة. عبر المدينةَ فيلقٌ يحمل أعلام البلاد القديمة، منشداً النشيد الوطنيّ السّابق، وبعض الأغاني الأخرى التي تستحضر ثورة أخرى، ثورة تعود لقرنٍ مضى.

الحانات ممتلئةٌ. النّاس يتحدّثون، ويضحكون، ويصدحون بأصوات أعلى من المعتاد.

ظلّ لوكاس يستمع إلى الراديو بشكل منتظم، حتّى اليوم الذي استبدلت فيه الموسيقى الكلاسيكية بالأخبار.

نظر لوكاس عبر النّافذة. في ساحة برانسيبال توقّفت دبّابةٌ من دبابات جيش الأجانب.

غادر لوكاس منزله لشراء علبة سجائر. كانت المحلاّت والمتاجر كلّها مقفلةً. كان على لوكاس أن يذهب حتّى المحطّة. صادف في طريقه دبّابات أخرى. استدارت فوهات الدبابات صوبه، ولاحقته. الشوارع قفرٌ، والنوافذ مقفلة، والستائر مسدلة. لكنّ المحطّة ونواحيها مليئة بجنود البلاد، وخفر الحدود، عزَّلٍ. سألهم لوكاس:

ـ ما الذي يجري؟

ـ لا أدري. يتمّ ترحيلنا. هل تريد أن تستقلّ القطار؟ ما من قطارات للمدنيّين.

ـ لا أريد أن استقلّ القطار. أردت فقط شراء سجائر. كلّ المتاجر والمحلات مقفلة.

مدّ الجنديّ علبة سجائر للوكاس:

ـ لا يمكنك دخول مبنى المحطّة. خُذ هذه العلبة وعد إلى بيتك. التجوال خطرٌ.

عاد لوكاس إلى بيته. الطفل مستيقظ. ظلاّ يستمعان معاً للراديو.

الكثير من الموسيقى، وخطبٌ موجزة:

«لقد انتصرت الثورة. الشعب انتصر. طلبت حكومتنا مساعدة حامينا الأكبر، ضدّ عدوّ الشعب».

وأيضاً:

«اِبقوا هادئين. كلّ اجتماع يفوق عدد أفراده شخصين ممنوعٌ. ينبغي أن تظلّ المطاعم والمقاهي مغلقةً إلى حين صدور أمر آخر. يمنع تنقّل الأفراد عبر القطارات أو الحافلات. اِلتزموا بحظر التجوال. لا تخرجوا من بيوتكم بعد غروب الشّمس».

twitter @baghdad_library

ثمّ المزيد من الموسيقى، وبعدها نصائحٌ وتهديدات:

«ينبغي استئناف العمل في المصانع. العمال الذين لا يذهبون إلى مقرّات عملهم، يعتبرون مفصولين. ستقام للمخرّبين محاكم استثنائية. وقد يواجهون عقوبة الإعدام».

قال الطّفل:

- لم أفهم شيئاً. من انتصر في الثورة؟ ولمَ يُحظَر كلّ شيء؟ لمَ هم أشرارٌ إلى هذه الدّرجة؟

أغلق لوكاس الرّاديو:

- لا ينبغي أن نستمع بعدُ إلى الرّاديو. لا فائدة في ذلك.

استمرّت المقاومة والمعارك والإضرابات. واستمرّت عمليات التوقيف والحبسِ والاختفاء والإعدامات. نزح من البلاد مائتا ألف ساكن.

بضعة شهورٍ بعد ذلك، عاد الصمت والهدوء، وبسط النّظام أجنحته على البلاد من جديد.

رنّ لوكاس جرس بيت بيتر:

- أعلم أنّك قد عُدتَ. لمَ تختفي منّي؟

- لا أختفي منك. فقط حسبتُ أنّك لا ترغب في رؤيتي. انتظرت أن تقوم بالخطوة الأولى.

قال لوكاس:

- وهذا ما حدث. يبدو في المحصّلة أنّ كلّ شيء عاد إلى سابق عهده. لم تُفد الثورة في شيء.

قال بيتر:

ـ التاريخ هو من سيحكم.

ضحك لوكاس مرّةً أخرى:

ـ هيَ ذي كلماتٌ كبيرة. ما الخَطبُ يا بيتر؟

ـ لا تضحك. لقد اجتزتُ أزمةً خطيرةً. لقد قدّمت أوّلاً استقالتي من الحزب، ثمّ أقنعت نفسي باستعادة دوري في هذه المدينة. أحبّ هذه المدينة كثيراً. إنّها تسيطر على روحي. حين نسكنها مرّة، لا يمكننا أن لا نعود إليها. وثمّة أنت أيضاً يا لوكاس.

ـ أ هو اعترافٌ بالحب؟

ـ كلاّ. اعترافٌ بالصّداقة. أعلم أنّني لا ينبغي أن آمل في شيء من جانبك. ماذا عن كلارا؟ هل عادت؟

ـ كلاّ، لم تعد كلارا. صار يسكن بيتَها شخصٌ آخر.

قال بيتر:

ـ مات ثلاثون ألفاً في العاصمة. حتّى أنّهم قد أطلقوا النّار على مسيرةٍ مؤلّفةٍ من نساءٍ وأطفال. إذا ما كانت كلارا قد شاركت في...

ـ لا ريب في أنّها قد شاركت في كلّ الأحداث التي كانت تجري في العاصمة. أحسب أنّها قد لحقت بتوماس، وذاك حسَنٌ. لم تكفّ يوماً عن الحديث عن توماس. لم تكن تفكّر سوى بتوماس، ولم تحبّ سوى توماس. كانت مريضةً بتوماس. بطريقة أو بأخرى كانت ستموت مِنْ توماس.

قال بيتر:

twitter @baghdad_library

ـ كثيرون عبروا الحدود أثناء فترة الاضطراب، إذ لم تكن الحدود محروسةً. لمَ لم تستغلَّ الفرصةَ وتلحق بأخيك؟

ـ لم يخطر ببالي ذلك، ولو لوهلةٍ. أنّى لي أن أترك طفلاً وحيداً؟

ـ كنت تستطيع اصطحابه معك.

ـ لا يمكن أن نلقيَ بأنفسنا في مغامرة كهذه، وبرفقتنا طفلٌ في سن مماثلةٍ.

ـ نلقي بأنفسنا أنّى كان، ومع أيّ كان، إذا ما كنّا نرغب في ذلك حقاً. ليس الطّفل سوى ذريعة.

خفض لوكاس رأسه:

ـ ينبغي أن يظلّ الطّفل هنا. إنّه ينتظر عودة أمّه. ما كان ليرضى بمرافقتي.

لم ينبس بيتر بكلمة. رفع لوكاس رأسه ونظر إلى بيتر:

ـ أنت محقٌّ. لا أرغب في اللّحاق بكلاوس. هو من ينبغي أن يعود، فهو من رحل.

قال بيتر:

ـ من لا وجود له، ليس بوسعه أن يعود.

ـ كلاوس موجود، وسيعود!

اِقترب بيتر من لوكاس وشدّ على كتفَيْه:

ـ اِهدأ. ينبغي أن تنظر إلى الواقع. لا أخوك ولا أمّ الطّفل، سيعودان، أنت تعلم ذلك علمَ اليقين.

غمغم لوكاس:

ـ بلى، لوكاس سيعود.

هوى على وجهه فوق الأريكة، اصطدمت جبهته بحاشية الطاولة، وتهاوى على الحصير. رفعه بيتر فوق الكنبة، ثمّ بلّل قطعة قماش بالماء ومسح بها على وجه لوكاس المعرّق. وحين استعاد لوكاس وعيه، سقاه بيتر ماءً، ومدّ له سيجارة مشتعلة:

ـ سامحني يا لوكاس. لنقفل هذه الموضوعات ونهجر الخوض فيها.

سأله لوكاس:

ـ عمَّ تحدّثنا؟

أشعل بيتر سيجارةً أخرى:

ـ تحدّثنا في السيّاسة، بالطّبع.

ضحك لوكاس:

ـ لا ريب في أنّ الحديث كان مملاً لدرجة أنّي غفوت على أريكتك.

ـ أجل، هوَذا يا لوكاس. لطالما كانت السياسة موضوعاً مملاً بالنّسبة لك، أليس كذلك؟

صار الطّفل في السّادسة والنّصف من عمره. ودَّ لوكاس مرافقته في أوّل أيام الدّراسة، بيد أنّ الطّفل فضّل الذّهاب بمفرده. وحين عاد بعد الزّوال، سأله لوكاس عمّا إذا كان كلّ شيء قد مرّ على ما يرام، فأجابه بأنّ كلّ شيء مرّ على ما يرام.

وفي اليوم الموالي، قال الطّفل مرّة أخرى، إنّ كلّ شيء بالمدرسة مرّ على ما يرام. على أنّه عاد ذات يوم جريحَ الخدِّ. قال إنّه قد تعثّر. وفي يوم آخر، كانت يده اليمنى تحمِلُ آثارَ احمرار. وعلى نفس اليد، صارت الأظافر في اليوم الموالي سوداءَ، باستثناء ظفر الإبهام. قال

twitter @baghdad_library

الصبيّ إنّه قد أقفل الباب على أصابعه. ولأسابيع عديدة وهو مضطر إلى أن يستخدم يده اليسرى في الكتابة.

ذات مساءٍ عاد الطّفل بفمٍ مشقوقٍ متورّم. لم يستطع تناول طعامه. لم يسأله لوكاس شيئاً، صبّ لهَ قليلاً من الحليب في فمه، ثمّ وضع على طاولة المطبخ جورباً مليئاً بالرّمل، وحجراً مقدوداً، وموسى حلاقة. قال:

ـ كانت هذه أسلحتَنا ضدّ باقي الأطفال. كنّا ندافع بها عن أنفسنا. خُذها. دافع عن نفسك!

قال الطّفل:

ـ كُنتُما اثنَين. أمّا أنا فواحدٌ.

ـ حتّى حين يكون المرء وحيداً، عليه أن يتعلّم الدّفاع عن نفسه.

نظر الطّفل إلى الأشياء الموضوعة على الطّاولة:

ـ لا أستطيع. لن يكون بمقدوري أبداً ضرب أحدٍ أو إصابته.

ـ لماذا؟ إنّ الآخرون يضربونك، ويصيبونك.

نظر الطّفل في عينَي لوكاس:

ـ الجراح الجسدية ليست ذات شأن حين أتلقّاها. أمّا إذا ما قُيّض لي أن أتسبب بها لأحدَهم، فسينقلب الأمر إلى جراحٍ من نوع آخر، جراح لا يمكنني تحمّلها.

سأله لوكاس:

ـ أتريد أن أبلغ المعلّمَ بالأمر؟

ـ إلا هذا يا لوكاس! أمنعك من فعل ذلك! هل جئتُكَ شاكياً؟ هل طلبتُ مساعدتك؟ هل سألتُكَ أسلحَتَك؟

أزاح من فوق الطّاولة أسلحة الدّفاع عن النّفس:

ـ أنا أقوى من الجميع. أكثر شجاعة، ثمّ على وجه التّخصيص، أنا أشدُّ ذكاءً. وهذا فقط ما يهمّ.

رمى لوكاس بالجورب المملوء رملاً في حاوية القمامة. وأغلق الموسى ثمّ وضعها في جيبه:

ـ ما زلت أحمله معي، لكنّي ما عدتُ أستعمله.

حين خلد الطّفل إلى فراشه، دخل عليه لوكاس الغرفةَ، وجلس عند حافة سريره:

ـ لن أتدخّل في شؤونك بعد الآن يا ماتياس. لن أسألك بعدُ أيّ سؤال. عندما سترغب في ترك المدرسة، ستخبرني بذلك، أليس كذلك؟

قال الطّفل:

ـ لن أترك المدرسة أبداً.

سأله لوكاس:

ـ أخبرني يا ماتياس، هل تبكي أحياناً باللّيل، حين تكون وحيداً؟

قال الطّفل:

ـ لقد اعتدت البقاء وحدي. لا أبكي البتّة، أنت تعلم ذلك.

ـ أجل، أعلم ذلك. لكنّك أيضاً لا تضحك البتّة. عندما كنتَ طفلاً كنتَ تضحك طيلة الوقت.

ـ لابد أنّ الزمن الذي تتحدّث عنه، يرجع إلى ما قبل وفاة ياسمين.

ـ ما الذي تقوله يا ماتياس؟ ياسمين لم تمت.

ـ بلى. لقد ماتت. علِمتُ بذلك منذ زمنٍ. لو لم تمت لكانت عادت.

twitter @baghdad_library

بعد برهة صمتٍ قال لوكاس:

ـ حتّى بعد رحيل ياسمين، كنت ما تزال تضحك يا ماتياس.

نظر الطّفل إلى السّقف:

ـ أجل، ربمّا. كان ذلك قبل أن نترك بيت الجدّة. ما كان علينا أن نترك بيت الجدّة.

أخذ لوكاس وجه الطّفل بين يدَيْه:

ـ لعلّك محقٌّ. ربّما ما كان علينا أن نترك بيت الجدّة.

أغمض الطّفل عينَيْه، فقبّله لوكاس على جبينه:

ـ نَمْ هنيئاً يا ماتياس. وحين يتعاظم ألمك، ويتفاقم حزنك، ولا تكون راغباً في أن تتحدّث مع أحدٍ، أكتب. الكتابة ستساعدك.

أجابه الطّفل:

ـ لقد كتبت. كتبت كلّ شيء. كتبت كلّ ما حدث معي، منذ أن انتقلنا إلى هنا. كوابيسي، والمدرسة، وكلّ شيء. أنا أيضاً أملك دفتريَ الكبير، تماماً مثلك. أنت تملك الكثير من الدّفاتر، أمّا أنا فلا أملك سوى واحدٍ، وهو أقلّ سمكاً من دفاترك. لن أسمح لك أبداً بأن تقرأه. لقد منعتَني من أن أقرأ دفاترك، لذا سأمنعك من قراءة دفتري.

في السّاعة العاشرة، دخل إلى المكتبة مُسِن ملتحٍ. سبق للوكاس أن التقاه؛ هو أحد أفضل زبائنه. قام لوكاس، وسأله باسماً:

ـ أيّ خدمةٍ يا سيّدي؟

ـ شكراً، لديّ كلّ ما أحتاجه. لقد أتيت أحدّثك بشأن ماتياس. أنا مدرِّسُه. لقد أرسلت لك العديد من الرّسائل، أطلب منك فيها الحضور لمقابلتي.

قال لوكاس:

ـ لم أستلم أيَّ رسالة.

ـ مع أنّك وقّعت على استلامها!

أخرج المدرّس من جيبه ثلاثة أظرفةٍ ومدّها إلى لوكاس:

ـ أليسَ هذا توقيعك؟

تفحص لوكاس الرّسائل:

ـ نعم وكلاّ. هو توقيعي وقد تمّ تزويره بعناية.

اِبتسم الأستاذ بينما يستعيد الرّسائل:

ـ هذا ما خمّنته في نهاية المطاف. ماتياس لا يرغب في أن أقابلك. لهذا قرّرت أن أزورك أثناء حصّة الدّرس، وطلبت من تلميذ أكبر سناً، أن يحرس تلاميذي أثناء غيابي. ستظلّ زيارتنا طيَّ السرِّ إذا ما وددتَ ذلك.

قال لوكاس:

ـ أجل، أظنّ أنّ هذا أفضل. لقد منعني ماتياس من مقابلتك.

ـ إنّه طفل عزيز النّفس، لا بل حتّى بوسعنا القول إنّه طفلٌ معتدٌّ بنفسه. كما أنّه، بلا ريب، أذكى تلاميذ الفصل. لكن، على الرّغم من ذلك، ليس بوسعي أن أقدّم لك سوى نصيحةٍ واحدة: أَخرِج الطفلَ من المدرسة. سأوّقع الوثائق الضرورية لذلك.

قال لوكاس:

ـ ماتياس يرفض ترك المدرسة.

ـ لو علِمتَ بما يقاسيه! يعجز الفهم عن إدراك قسوة الأطفال. الفتيات يسخرن منه. ينادينَه «العنكبوت»، «الأحدب»، «اللّقيط». يجلس

twitter @baghdad_library

بمفرده في الصّف الأوّل، ولا أحد يرغب في الجلوس بجانبه. الأولاد يضربونه، يركلونه ويلكمونه. الطّفل الجالس خلفه، سحق أصابعه بالطّاولة. تدخّلت غير ما مرّة، بيد أنّ تدخلي لم يزد الوضع إلاّ تفاقماً. حتّى ذكاؤه ينقلب ضدّه. لا يتقبّل باقي الأطفال أن يكون ماتياس عارفاً بكلّ شيء، وأن يكون الأفضل في كلّ الميادين. يغارون منه، فيقلبون حياتَه جحيماً.

قال لوكاس:

ـ أعلم ذلك، وإن لم يخبرني قطّ بشيء.

ـ كلاّ، هو لا يشتكي. لا بل إنّه لا يبكي حتّى. لديه طبع قويّ جداً. لكنّه لن يستطيع إلى الأبد تحمّل ذلك الكمّ من الإهانات. أخرِجه من المدرسة، وسآتي إلى هنا كلّ مساءٍ، كي أعطيَه دروساً، سيسعدني الاشتغال مع طفلٍ في مستوى ذكائه.

قال لوكاس:

ـ أشكرك يا سيّدي. لكنّ القرار ليس بيَدي. ماتياس مصرّ على أن يتابع الدّراسة بشكل طبيعي، مثله مثل جميع الأطفال. أن يترك المدرسة، هو بالنّسبة له، إقرارٌ باختلافه عن الآخرين، بكونه مشوّهاً.

قال المدرّس:

ـ أتفهّم ذلك. ومع ذلك، هو مختلف، وعليه أن يتقبّل ذلك عاجلاً أم آجلاً.

صمت لوكاس، بينما أخذ المدرّس يجول متفحّصاً الكتب على الرّفوف:

ـ إنّه محلّ واسع جداً. ما رأيك في أن تضع به بعض الطّاولات والكراسي، وتجعل منه قاعةً للمطالعة يقصدها الأطفال. أستطيع أن

آتيك بكتب مستعملة. هكذا يكون بوسع الأطفال الذين لا يمتلك آباؤهم أيّ كتابٍ، وهم كثر، أن يأتوا إلى هنا ويقرؤوا صامتين ساعةً أو ساعتَين.

تفرّس لوكاس المدرّس:

ـ تحسِبُ أنّ ذلك قمين بأن يربط أواصر التواصل ما بين ماتياس وباقي الأطفال، أَليسَ كذلك؟ بلى، إنّ الأمر يستحقّ التجربة. لعلّها فكرةٌ جيّدة، يا سيّدي المدرّس.

twitter @baghdad_library

٦

إنّها العاشرة مساءً. طرق بيتر بيت لوكاس. ألقى إليه لوكاس بالمفتاح من النّافذة. صعد بيتر ودخل الغرفة:

ـ لا أزعجك؟

ـ مطلقاً. لا بل بالعكس، لقد بحثتُ عنك طويلاً، لكنّك كنت قد اختفيت. حتّى ماتياس أقلقَه غيابُك.

قال بيتر:

ـ هذا لطفٌ منه. هل هو نائم؟

ـ هو بغرفته، لكن أنّى لي أن أعرف إذا ما كان نائماً أم يقوم بشيء آخر. يستيقظ في أيّ ساعةٍ من الليل، ويشرع في القراءة، والكتابة، والتفكير، والدّراسة.

ـ هل من الممكن أن يسمعنا؟

ـ أجل بإمكانه ذلك، إن أراد.

ـ في هذه الحال، أُفضّلُ أن نذهب إلى بيتي.

ـ حسناً.

عندما صارا ببيت بيتر، قام هذا بفتح جميع النّوافذ ثمّ ارتمى على الأريكة:

ـ هذا الصّهد لا يُحتمل. اجلب لنفسك مشروباً واجلس. عدت لتوّي من المحطّة، لقد سافرت النهارَ بأكمله، وبدّلت قطاري أربع مرّات، منتظراً فترات طويلة جداً بين قطارٍ وآخر.

صبّ لوكاس الشّراب:

ـ إلى أين ذهبتَ؟

ـ إلى مسقط رأسي. لقد استدعاني قاضي التّحقيق على وجه السرعة، بشأن فيكتور. لقد خنق أخته إثر نوبة عصاب هذائي.

قال لوكاس:

ـ المسكين فيكتور. هل رأيتَه؟

ـ أجل، رأيته. هوَ في مصحٍّ عصبيٍّ.

ـ كيف حاله؟

ـ بخير. إنّه هادئ. منهكٌ قليلاً بسبب الأدوية. سُرَّ لرؤيتي، سألني أخباركَ وأخبارَ المكتبة والطّفل. يبلّغكم سلامَه.

ـ وماذا يقول في موضوع أخته؟

ـ قال لي بهدوء: «ما كان كان، ليس بالإمكان تغييره».

سأله لوكاس:

ـ ما سيكون مصيره؟

ـ لا أدري. المحاكمة لم تبدأ بعد. أعتقد أنّه سيبقى في المصحّ حتّى آخر أيّام عمره. مكان فيكتور ليس السّجن. لقد سألته ما إذا كان يريد شيئاً، فقال لي إنّه يريد أن أرسل إليه بانتظام ما يَكتب به. قال لي: «كلّ ما أحتاجه، أقلامٌ وأوراق، هنا بوسعي أخيراً أن أكتبَ كتابي».

twitter @baghdad_library

ـ أجل، كان فيكتور يرغب في كتابة كتابٍ. أخبرني بذلك حين اشتريتُ منه المكتبة. لا بل إنّه لهذا السّبب باع كلّ ما يملك.

ـ أجل، لقد بدأ فعلاً كتابة كتابه.

أخرج بيتر من حقيبته حزمةً من الأوراق المكتوبة على الآلة:

ـ لقد قرأتها في القطار. خذها، اقرأها، ثمّ أعدها إليَّ. لقد كتبها على الآلة بجوار جثمان أخته. لقد خنق أخته، ثمّ جلس إلى مكتبه يكتبُ. لقد وجدوهما هكذا، في غرفة فيكتور؛ الأخت مخنوقة، وفيكتور يكتب على الآلة، ويشرب ماء ـ الحياة ويدخّن السيجار. زبوناتُ الأخت هن من أبلغَ الشرطةَ غداةَ ما وقعَ. يومَ الجريمة، خرج فيكتور من المنزل، سحب النّقود من البنك، واشترى قنانيَ ماء ـ الحياة وعلب السجائر والسيجار. وقال للزبونات، اللّواتي كنّ ينتظرون عند الباب، إنّ أخته مريضةٌ بسبب الحرّ، ولا ينبغي إزعاجها. في اليوم الموالي عادت الزبونات اللّحوحات والمتشوّقات للحصول على فساتينهنّ، طرقنَ البابَ، تحدّثن مع الجيران، وبدا الأمر مريباً، فقرّروا إعلامَ الشّرطة. كسرَ الشرطة قفل الباب، ووجدوا فيكتور ثملاً تماماً، يواصل رقنَ مخطوطه بهدوءٍ. اِنساق لهم دونَ مقاومةٍ، حاملاً معه الأوراق التي كان قد حبّرها. اِقرأها. على الرّغم من كثرة الأخطاء، النصّ مقروء ومثيرٌ للاهتمام.

عاد لوكاس إلى بيته حاملاً مخطوط فيكتور. وشرع يدوّنه في دفتره:

نحن اليوم في الخامس عشر من غشت/آب. موجة الصّهد متواصلة منذ ثلاثة أسابيع. الحرّ لا يطاقُ، إنْ داخلَ البيوت أو خارجَها. لا سبيل

إلى الاحتماء منه. لا أحبُّ الحرّ، ولا أحبُّ الصّيفَ. قد أتقبّل صيفاً ممطراً أو بارداً، لكنّ موجة الحرّ لطالما أمرضَت مزاجي.

خنقت أختي للتوّ. هي مُسْجاةٌ على سريري، وقد غطّيتُها بإزار. مع هذا الحر، لن يلبثَ جسدُها أن يُعلنَ عن روائحه. لكن ليكُن ما يكون. سأرى ما عليّ فعله، لاحقاً. أغلقتُ باب مدخل المنزل بالمفتاح، وحين يُطرَق البابُ لا أفتح. أغلقت أيضاً النّوافذ وأسدلت الستائر.

عشتُ مع أختي ما يقاربُ السّنتَين. وكنتُ قد بعت المنزل والمكتبة اللّذين كنت أملكهما في مدينة صغيرة نائية، قرب الحدود. أتيت للعيش مع أختي، سعياً إلى تأليفِ كتاب. في تلك المدينة الصغيرة النّائية، كان يبدو لي الأمرُ مستحيلاً، بسبب العزلة الكبيرة التي كانت تتوعّدني بالمرض وإدمانِ الكحول. كنتُ أحسب أنّني هنا، بجوار أختي التي كانت تهتمّ بشؤون البيت والمأكل والملبس، سأحيا حياةً سليمة، حياةً متوازنةً تمكّنني أخيراً من أن أكتب الكتاب الذي حلمتُ به طيلةَ عمري.

للأسف، ما لبثت تلك الحياة الهادئة المطمئنّة، التي تخيّلتها، أن انقلبت جحيماً.

كانت أختي تراقبني دون توقّف. لقد حرمتني، مباشرةً فورَ وصولي، من الشّرب والتّدخين. وحينما كنتُ أعود من التّبضّع، أو من إحدى جولاتي، كانت تعانقني وتقبّلني بحنانٍ بالغ، بيد أنّي كنت مُدركاً أنّها إنّما تقوم بذلك بدافع تشمّم آثار الكحول والسّجائر لا أكثرَ.

اِمتنعتُ عن شرب الكحول بضعة شهورٍ، لكن كان من المتعذّر عليَّ أن أتخلّى عن السّجائر أيضاً. كنت أدخّن خلسةً، مثلَ طفلٍ، أشتري سيجاراً أو علبةَ سجائر وأقصد الغابة في جولةٍ. وقبل عودتي إلى البيت،

twitter @baghdad_library

كنت أمضغ أبر الصنوبر، وأمصّ حلوى بالنّعناع كي أخفيَ الرّائحة. كما كنت أدخّن ليلاً بنافذةٍ مفتوحة، صيفاً وشتاءً.

كثيراً ما كنت أجلس إلى مكتبي واضعاً أمامي حزمةَ أوراقٍ، بيد أنّي كنت أحسّ في رأسي فراغاً مطلقاً.

ماذا كان بوسعي أن أكتبَ؟ لم يكن يحدث حولي شيء، ولم يسبق أن حدث لي أو حدث حولي شيء. لا شيء ممّا يستحقّ عناء الكتابة. ثمّ إنّ أختي كانت تزعجني طيلةَ الوقت. كانت تقتحم غرفتي متعلّلةً بشتّى الذّرائع. كانت تحمل إليّ الشّايَ، تأتي لترتيب الأثاث، تضع ملابس نظيفةً في الدولاب. كما أنّها كانت تشرئبُّ من خلف ظهري لترى ما إذا كان الاشتغال على الكتاب يتقدّم. لهذا السّبب كان لزاماً عليّ أن أحبِّرَ الصّفحات تلو الأخرى، وإذْ لم أكن أعرف بِمَ أملؤها، صرتُ إلى نقلِ مقاطعَ من كتب أخرى، أيّاً كانت تلك الكتب. وأحياناً كانت أختي تقرأ صفحة من فوق كتفي، وتجدها جميلةً، فتشجّعني على الاستمرار بابتسامة رضاً.

ما كان ثمّة من إمكانٍ لانفضاح خداعي، لأنها لم تكن تقرأ البتّة، لعلّها لم تقرأ طيلة حياتها ولا كتاباً واحداً، لم تملك الوقتَ يوماً، مُذ كانت طفلةً وهيَ تعمل من الصّباح إلى اللّيل.

مساءً كانت تجبرني على الجلوس في الصالون:

ـ لقد عمِلتَ ما يكفي اليومَ، هيا لندردش قليلاً.

كانت تتحدّث، وهي منكبّة على الاشتغال بيدها، أو على آلة الخياطة. تتحدّث عن جيرانها، عن زبائنها، عن الفساتين والأثواب، عن تعبها، عن مدى تضحيتها في سبيل أن يبدع أخوها كتابه ويحصدَ النّجاح. أخوها، هو أنا، فيكتور.

كنتُ مجبراً على البقاء جالسا هناك، من دون سجائر أو كحول، أنصت إلى ثرثرتها الغبيّة. وحين كانت تقصد غرفتها أخيراً، أقصد غرفتي أنا أيضاً، وأشعل سيجاراً أو سيجارةً، وأتناول ورقةً أملؤها شتماً وسباباً تجاه أختي وزبائنها البُلداء وفساتينها السّخيفة. كنت أخفي الورقة بين الورقات الأخرى التي لم تكن سوى كشكول من النّصوص المنسوخة عن كتب أخرى. وبمناسبة أعياد الميلاد، أهدتني أختي آلةً كاتبةً:

ـ مخطوطك صار سميكاً جداً، أحسبُ أنّك على وشك الفراغ من كتابك. بعد ذلك سيكون عليك رقنُه على الآلة الكاتبة. كنتَ قد أخذت دروساً في الكتابة على الآلة بمدرسة التّجارة، وحتّى إذا ما كنتَ قد نسيتَها بسبب انعدام الممارسة، فإنّك ستستعيدها بسهولة.

كنتُ قد بلغت قمّة اليأس. لكنْ حتّى أُبهج أختي، جلست فوراً إلى المكتب، ونقلتُ، بشكلٍ سيء، بعض الصّفحات من نصٍّ كنت قد نقلته أصلاً من أحد الكتب. أخذت أختي تتابعني محرّكةً رأسها برضاً:

ـ أنت تكتب على نحو لا بأس به، إنّي لَمندهشةٌ، لا بل إنّك تكتب على نحو جيد. بعد مدّة وجيزة، ستتمكّن من الكتابة بنفس السرعة التي كنت تكتب بها فيما مضى.

مرّةً واحدةً فقط قرأت الصّفحات التي رقنتُها على الآلة. لم تكُن سوى فظاعات إملائية، وأغلاط وأخطاء مطبعية.

أيّاماً بعد ذلك، لحظةَ عودتي من جولتي «الصحيّة»، دخلت إلى حانة الضاحية. كنت أرغب فقط في تدفئة جسمي بفنجان شايٍ، إذ أنّ يديّ وقدميَّ كانت متجمّدة ومتصلّبةً تماماً بسبب سوء الدّورة الدّموية. جلست إلى طاولةٍ قرب المدفأة، وحين سألني النّادل ماذا أريد، أجبته:

ـ شايّ.

twitter @baghdad_library

ثمّ أضفتُ:

ـ بالرُّم.

لم أدرِ لمَ أضفتُ تلك الكلمة، ما كانت لديّ أدنى نيَّةٍ في أن أضيفها، ومع ذلك أضفتها. شربت قدح الشّاي بالرُّم، ثمّ طلبت المزيد من الرُّم، بدون شايٍ هذه المرّة، ثمّ طلبت لاحقاً كأساً أخرى من الرُّم.

نظرتُ حولي قلِقاً. لم تكن المدينة كبيرةً، ويكاد الجميع هنا يعرفون أختي. ماذا لو علمت عبر جيرانها أو عبر زبائنها، أنني دخلت إلى حانةٍ! بيد أنّي لم أرَ حولي سوى وجوهِ رجالٍ متعبين، لا مبالين، مغيَّبين، فتبدّد قلقي. تخاذلت خطواتي، إذ لم أكن قد شربتُ منذ أشهر عديدة، فصعد الكحول سريعاً إلى رأسي.

ما عدتُ أعرف السّبيل إلى المنزل. خِفت من أختي. تهت مدَّةً بين الشّوارع، ثمّ اشتريتُ من أحد المتاجر علبةَ سكاكر بالنّعناع، وفوراً وضعت قطعتَين دفعةً واحدةً في فمي. ولحظةَ الدّفع، دون أن أدرِ السّببَ، ودون أن تكون لي نيّةٌ في القيامِ بذلك، طلبت من البائعة بنبرةٍ مفكّكة:

ـ أعطيني أيضاً قنينةً من ماء ـ الحياة بنكهة البرقوق، وعلبتي سجائر، وثلاثة سيجار.

دسستُ القنينةَ في جيب معطفيَ الدّاخليّ. كان الثلج يندف في الخارج، وأحسست نفسي سعيداً تماماً. لم أعد خائفاً من العودة إلى البيت، ولا خائفاً من أختي. وحين دخلت المنزلَ صاحت بي من غرفتها التي كانت قد جعلتها مشغلَ خياطة:

ـ لديَّ عملٌ مستعجلٌ يا فيكتور. طعامكَ ساخن في الفرن. سأتناول عشائي لاحقاً.

أكلت طعامي في المطبخ بسرعةٍ، ثمّ انسحبت إلى غرفتي، وأغلقت الباب بالمفتاح. كانت تلك المرّة الأولى التي أجرؤ فيها على إغلاق باب غرفتي بالمفتاح. وحين أرادت أختي دخول الغرفة، صرخت بها، جرؤت على أن أصرخ بها:

ـ لا تزعجيني! تَرِدُني أفكارٌ رائعةٌ! ينبغي أن أسجّلها قبل أن تطير.

أجابت أختي باستكانةٍ:

ـ لم أرغب في إزعاجك. كنت أودّ فقط أن أقول لك تصبح على خير.

ـ تصبحين على خير يا صوفي!

ظلَّت واقفةً خلف الباب:

ـ كانت عندي زبونة مُتطلّبَةٌ. كان ينبغي أن أجهّزَ فستانها لمناسبة رأس السّنة. سامحني يا فيكتور على تناولِك الطّعام بمفردك.

أجبتها بصوت لطيف:

ـ لا أهميّة لذلك يا صوفي، اذهبي إلى فراشك، لقد تأخّر الوقت.

بعد برهة صمتٍ سألتني:

ـ لمَ غلَّقتَ بابكَ بالمفتاح يا فيكتور؟ ما كان عليك أن تفعل ذلك. ليس الأمر ضرورياً إلى هذا الحدّ.

شربت جرعةً من ماء ـ الحياة لأهدأ:

ـ لا أرغب في أن يزعجني أحدٌ. أنا أكتب.

ـ جيد. جيدٌ جداً يا فيكتور.

شربت قنينة ماء ـ الحياة بأكملها، ولم تكن سوى نصف لتر، ودخّنت سيجارَين وثلاث سجائر. رميت الأعقاب عبر النّافذة. وكان

twitter @baghdad_library

الثلج ما يزال يتساقط. غطّت ندف الثلج الأعقاب، وطوّحت بالزّجاجة أيضاً من النّافذة، بعيداً في الشّارع.

صباح اليوم الموالي، طرقت أختي الباب. لم أُجبها. طرقت الباب مرّة أخرى. صحتُ:

ـ دعيني أنام!

سمعت خطواتها تبتعد.

لم أستيقظ حتّى الثانية زوالاً. كان الطّعام وأختي ينتظرانني بالمطبخ. وهوَذا حوارنا:

ـ لقد سخّنتُ الغذاءَ ثلاث مرّاتٍ.

ـ لستُ جائعاً، أعدّي لي قهوةً.

ـ إنّها السّاعة الثانية. كيف أمكنك أن تنام كلّ هذا؟

ـ لقد ظللتُ أكتب حتّى الخامسة صباحاً. أنا فنّانٌ. من حقّي أن أعملَ متّى عنَّ لي ذلكَ، متى واتاني الإلهام. الكتابة ليست كخياطة الفساتين. اِفهمي هذا يا صوفي.

نظرت إليّ أختي بإعجابٍ:

ـ أنتَ مُحقٌّ يا فيكتور. سامحني. هل شارفت على الانتهاء من كتابك؟

ـ أجل، سأنهيه قريباً.

ـ يا لسعادتي! سيكون كتاباً رائعاً. لقد اقتنعت بذلك من المقاطع القليلة التي قرأتُها.

قلت في سرّي:

ـ يا للحمقاء!

صرت أشربُ أكثرَ فأكثر. وبدأت أتخلى عن حذري. كنت أنسى علب السّجائر في جيب معطفي. وكانت أختي تقلّب جيوبي بذريعة التنظيف والغسل. وذات يومٍ دخلت إلى غرفتي ملوِّحَةً بعلبة سجائر نصف فارغةً:

ـ أنتَ تدخِّنُ!

أجبتها بنبرةٍ متحدِّيةٍ:

ـ نعم، أنا أدخن. لا أستطيع الكتابة دون تدخين.

ـ لقد وعدتني بأن لا تدخِّنَ!

ـ لقد وعدتُ نفسي أيضاً بذلك. لكنّي أدركتُ أنّني لا أستطيع الكتابةَ دون أن أدخِّنَ. إنّها حالةٌ من حالات النّفس بالنّسبة لي يا صوفي. إذا ما توقّفت عن التّدخين، أتوقّف عن الكتابة. قررت أنّ من الأفضل لي أن أستمرّ بالتّدخين والكتابة، على أن أعيش دون كتابة. لقد شارفت على الانتهاء يا صوفي، ينبغي أن تتركيني أنهي كتابي بحريّة، وليس مهمّاً أن أدخّن أو لا أدخّن.

اِنسحبت أختي دهشةً، ثمَّ ما لبثت أن عادت حاملةً منفضة سجائر وضعتها على مكتبي:

ـ دخن إذن. ليس التّدخين بالأمر السيئ جداً، إذا ما كان في سبيل كتابك...

وبالنّسبة للشرب، تبنّيتُ التقنية التالية: كنت أشتري لتراتٍ من ماء ـ الحياة من مختلف أحياء المدينة، آخذا بعين الاعتبار عدم العودة إلى المتجر نفسه مرّتين. كنت أحمل القنينة في جيب معطفيَ الدّاخليّ، ثمّ أخفيه في حامل المظلّات الموضوع بالرّدهة، وحين تخرج أختي أو

twitter @baghdad_library

تنام، كنت أستعيد القنينة، وأغلق على نفسي في غرفتي، وأشرب وأدخّن في وقت متأخّرٍ من اللّيل.

كنت أتفادى الحانات، وأقفل من جولاتي بخطىً رصينة، وكان كلّ شيء يسير على ما يرام بيني وبين أختي، إلى أن حلّ ربيع هذه السّنة، وبدأت صوفي تفقد صبرها:

ـ هل ستنهي كتابك يا فيكتور؟ لا يمكن للأمر أن يستمرّ إلى الأبد. تستيقظُ دائماً حتّى الثانية زوالاً، صارت سيماؤك عليلةً، وسينتهي المطاف بنا مريضَيْن معاً.

ـ لقد فرغت منه يا صوفي. لم يبقَ إلا التّصحيح ثمّ كتابته على الآلة. إنّه عملٌ كبيرٌ.

ـ ما كنتُ لأحسبَ أنّ تأليف كتاب يستغرق كلّ هذا الوقت.

ـ ليس الكتاب كالفستان يا صوفي، لا تنسي هذا.

حلّ الصّيف. وصرت أعاني فظاعة الحرّ. كنت أقضي فترات ما بعد الظهيرة في الغابة مضطجعاً تحت ظلّ الأشجار. أحياناً كنتُ أغفو، فأرى أحلاماً مضطربة. وذات مساءٍ فاجأتني العاصفةُ أثناء غفوتي. كانت عاصفة هوجاءَ. كان اليوم الرابع عشر من غشت/ آب. هربت من الغابة بأسرع ما تستطيعه ساقي المريضة. واحتميت بأوّل حانةٍ صادفتها في طريقي. كان هناك بعض العمّال، وبعض الرّجال البسطاء، يحتسون كؤوساً. كانوا مبتهجين جميعهم بالعاصفة، لأنّ شهوراً انصرمت دون أن تُمطرَ السّماءُ. طلبت ليمونادا فضحكوا من طلبي، وقدّم لي أحدهم كأس نبيذٍ أحمر. قبلتُه منه. بعد ذلك طلبت قنينةً، وقدّمت النّبيذ للجميع. واستمرّ الوضع كذلك بينما السّماءُ تمطر بالخارج؛ أطلب

القنانيَ واحدةً بعد أخرى، كنت أحسّ نفسي على أفضل ما يرام، مُحاطاً بدفء الصّداقة. أنفقت كلّ المال الذي كان معي. أخذ ندمائي ينسحبون واحداً بعد آخر، لكنّني ما كنتُ راغباً في الذهاب. كنت أشعر بنفسي وحيداً، ما كان لي بيتٌ، وما كنت أدري إلى أين أمضي، وددتُ لو أعود إلى بيتي، ومكتبتي، هناك بالمدينة الصّغيرة النّائية التي كانت أرضاً مثاليةً، صرت الآن على يقين: ما كان عليّ أن أتركَ المدينة الحدوديّة، لألحق بأختي التي كنت أكرهها منذ طفولتي.

قال لي ربُّ الحان:

ـ سنغلق!

وفي الشارع، انسحقت ساقي المريضة تحت ثقل جسدي، فتهاويت.

لست أذكرُ ما جرى بعد ذلك. اِستيقظتُ على سريري غارقاً في عرقي. ما كنت أجرؤ على مغادرة غرفتي. بدأت رويداً أستعيد نُتفاً من الذكريات. وجوه جذلى، سوقيّة، بحانة الضاحية... ثمّ المطر، وبركة الوحل... بزّاتُ رجال الشرطة الذين اصطحبوني... وجه أختي السّمج... شتمي لها... ضحك رجال الشرطة...

كان البيت صامتاً. وفي الخارج كانت الشمس مشرقةً من جديد، والحرارة خانقةً.

قمت من فراشي، وأخرجت حقيبتي القديمة من تحت السّرير، بدأت أملؤها بملابسي. كان ذلك هو الحلّ الوحيد. أن أرحل من هنا، بأقصى سرعة. رأسي دائخ. عينايَ وفمي وحلقي، كلّها ملتهبةٌ. أصابني الدّوار، فاضطررتُ إلى الجلوس. فكّرت في أنّي لن أتمكّن أبداً من بلوغ المحطّة وأنا على هذه الحال. فتّشت في سلة المهملات، فوجدت

twitter @baghdad_library

قنينة ماء ـ حياة بالكاد كنتُ قد بدأتها. شربت من عنقها مباشرة. شعرت بتحسّن. تحسّست رأسي. كانت بي كدمةٌ مؤلمة خلفَ أذني اليسرى. تناولت القنينة وحملتها صوب فمي، دخلت أختي في تلك اللّحظة، فوضعتها، ولبثتُ منتظراً. ظلت أختي أيضاً تنتظرُ. رانَ الصّمتُ طويلاً. وكانت هيَ من قطعه بصوتٍ هادئ وغريبٍ:

ـ ألديك ما تقوله؟

أجبتها:

ـ لا شيء.

صرخت قائلةً:

ـ ما أسهل الأمر! ليس للسيّد ما يقوله! تلمُّه الشرطة، ثملاً تماماً، غارقاً في الوحل، وليس لديه ما يقوله!

قلت:

ـ دعيني وشأني. سأرحل.

قالت زافرةً:

ـ أجل إنّي أرى ذلك. لكن إلى أين ستمضي أيها الأحمق، إلى أين ستمضي دون نقود؟

ـ ما يزال لديّ في البنك ما تبقى من ثمن بيع المنزل والمكتبة.

ـ آه، نعم؟ كنت أتساءل عمّا تبقى لديك من مال. لقد بعت مكتبتك، وصرفت النّقود القليلة التي حصّلتها، على الشراب والسجائر.

بالطّبع لم أخبرها قطّ عن قطع النقود الذهبيّة، ولا عن المجوهرات التي حصلت عليها، والتي وضعتها هي أيضاً بالبنك. أجبتُها ببساطة:

ـ ما يزال لديّ ما يكفي للرّحيل.

قالت لي:

ـ وماذا عنّي أنا؟ لم أتقاضَ أجري بعدُ. لقد أطعمتك وآويتك وعالجتك. من سيعوّضني عن كلّ ذلك؟

ـ سأعوّضك. دعيني أرحل.

بغتةً قالت:

ـ لا تتصرّف كالأطفال يا فيكتور. سأسامحك مرّةً أخيرةً. ما وقع أمس كان مجرّد حادثٍ، مجرّد نكسة. كلّ شيء سيتغيَّرُ ما إن تنهي كتابك.

سألتها:

ـ أيّ كتابٍ؟

رفعت «مخطوط»ي:

ـ هذا الكتاب. كتابك.

ـ لم أكتب ولا سطراً واحداً.

ـ ثمّة ما يقارب مائتي صفحة مرقونة على الآلة.

ـ أجل، مائتا صفحة منقولة من شتّى الكتب.

ـ منقولة؟ لستُ أفهم.

ـ لن تفهمي شيئاً أبداً. تلك الصفحات المئتان قد نقلتها من بعض الكتب. ليس ثمّة ولا سطر واحد من تأليفي.

ظلّت تحدّق فيَّ. حملتُ القنينة وأخذت أشربُ. شربت مطوَّلاً. هزّت رأسها:

ـ لا أصدّقك. أنت ثملٌ. تخرّف. لمَ ستقوم بأمرٍ مماثلٍ؟

قلت بنبرةٍ ساخرة:

twitter @baghdad_library

ـ لكي أوهمَك بأنّي أكتب. لكنّي لا أستطيع الكتابةَ هنا. أنت تزعجينني، تراقبينني طيلة الوقت، تمنعينني من الكتابة، مجرّد أن أراك، بل مجرّد حضورك في المنزل يمنعني من الكتابة. أنت تحطّمين كلّ شيء، تجعلين كلّ شيء يتدهور، تهدمين كلّ إمكانية للخلق أو الحياة أو الحرية أو الإلهام. منذ الطفولة وأنت لا تفعلين شيئاً سوى مراقبتي، والتّحكم بمصيري، وتنغيص حياتي، منذ الطّفولة!

ظلّت صامتةً برهةً، ثمّ قالت، وهي تتأمّل أرضية الغرفة والبساط البالي:

ـ لقد ضحّيت بكلّ شيء في سبيل عملك، في سبيل كتابك. ضحّيت بعملي، بزبائني، بسنواتي الأخيرة. كنت أسير على أطراف أصابعي، كي لا أزعجَك. لم تكتب ولا سطراً واحداً طيلة السّنتين تقريباً اللّتين قضيتهما هنا؟ لم تكن تفعل شيئاً سوى الأكل والشّرب والتّدخين! لست سوى كسولٍ، لا تصلح لشيء، مجرّد سكّير، طفيلي! لقد أعلمت جميع زبائني بقرب صدور كتابك! لم تكتب شيئاً؟ سأصير أضحوكةَ المدينة! جلبت لبيتي العارَ! كان عليّ أن أتركك راكداً تتحلّل في مدينتك الصّغيرة القذرة ومكتبتك الحقيرة. لقد قضيتَ هناك ما يفوق عشرين سنةً، لمَ لم تكتب كتاباً هناك، حيث لم أكن أزعجك، ولا أحد يزعجك؟ لماذا؟ لأنّك عاجزٌ عن أن تكتب سطراً واحداً من كتابٍ، مهما كان الكتاب متواضعاً، لن تكتب حتّى في أكثر الوضعيات ملائمةً، وأمثل الظروف.

ظللتُ أشربُ بينما تتحدّث هيَ، ومن بعيد سمعتُ صوتي يجيبها، كأنّما هو آتٍ من الغرفة المجاورة. قلت لها إنّها على صواب، لا أستطيع أن أكتب شيئاً ما دامت هي على قيد الحياة. ذكّرتُها بتجاربنا

الجنسية حين كنّا طِفلَين. تلك التجارب التي كانت هي البادئة إليها، بحكم أنّها كانت تكبرني بسنواتٍ عديدة، والتي خلّفت فيَّ من الصدّمات النّفسيّة، ما يفوق خيالها.

أجابت أختي بأنّ تلك الأفعال كانت مجرّد لعب أطفال، وأنّه لا يليق الحديث عن ذلك، خصوصاً وأنّها ظلّت عذراء، وأنّها ما عادت تكترث لـ«ذاك» منذ زمن طويل.

قلت لها إنّي أعلم أنّها ما عادت تكترث لـ«ذاك»، وإنّها صارت تكتفي بتحسّسِ أردافِ زبوناتها ونهودهنَّ، لقد لاحظت كيف كانت تفعل أثناء تجريب الملابس، ومدى اللّذة التي كانت تأخذ بمجامعها وهي تتلمّس زبوناتها الشّابات الجميلات، جميلات كما لم تكن هي يوماً، فهي لم تكن طيلة حياتها سوى فاسقة.

قلت لها إنّها بسبب قبحها وعفّتها المنافقة، لم تُثر يوماً اهتمامَ أيّ رجل. لذا أدارت اهتمامها صوب زبوناتها، وبذريعة أخذ المقاسات وصقل الثوب، كانت تسمح لنفسها بتلمّس أجساد تلك النّساء الجميلات والشّابات اللّواتي كُنَّ يطلُبنَ منها فساتين.

قالت أختي:

ـ لقد تجاوزتَ الحدودَ يا فيكتور، كفى!

أمسكت قنّينة ماء ـ الحياة، وضربت بها آلة الكتابة، انسكب المحتوى على المكتب. وأخذت أختي تقترب منّي حاملةً عنق القنينة المكسورة.

قمت من مكاني، ثبّتُ ذراعَها، لويت معصمَها، فتركَت القنينة. سقطنا معاً فوق السّرير، واضطجعت فوقها، طوّقت كفّايَ رقبتها النحيلة، وحين كفَّت عن الانتفاض، قذَفتُ.

twitter @baghdad_library

في اليوم الموالي، أعاد لوكاس مخطوطَ فيكتور إلى بيتر.

أشهراً بعد ذلك، عاد بيتر إلى مسقط رأسه كي يشهدَ محاكمة فيكتور. ظلّ هناك عدّة أسابيع. وحين عاد، عرّج على المكتبة، داعب شعر ماتياس وقال للوكاس:

ـ تعالَ لرؤيتي مساءً.

قال لوكاس:

ـ يبدو الأمر خطيراً يا بيتر.

هزّ بيتر رأسه:

ـ لا تسألني الآن أيّ سؤالٍ. أراك لاحقاً.

حين غادر بيتر، استدار الطّفل شطرَ لوكاس:

ـ هل أصابَ بيتر مكروهٌ؟

ـ كلاّ، ليسَ بيتر، وإنّما أخشى أن يكون قد أصاب أحد أصدقائه.

قال الطّفل:

ـ الأمر سيّان، لا بل أحياناً يكون أسوأ.

ضمّ لوكاس الطّفلَ إليه:

ـ أنت مُحقٌّ. أحياناً يكون الأمر أسوء.

ما إن صار لوكاس ببيت بيتر حتّى سأله:

ـ وإذن؟

أفرغ بيتر في جوفه دفعةً واحدةً كأسَ ماء ـ الحياة الذي صبّه للتوّ:

ـ وإذن؟ حُكم عليه بالإعدام شنقاً. نُفّذ الحكم أمس صباحاً. اِشرب!

ـ أنت ثملٌ يا بيتر!

رفع بيتر القنينة، تفحّص مستوى السّائل، ثمّ قال ساخراً:

ـ أجل، لقد بلغت نصفَ القنينة. إِستلمت الشّعلةَ من فيكتور.

قام لوكاس:

ـ سأعود في يومٍ آخر. لا جدوى من الحديث معك وأنت في هذه الحال.

قال بيتر:

ـ بالعكس. لا أستطيع الحديث عن فيكتور إلا وأنا في هذه الحال. إِجلس. خُذ هذا، لقد أرسلَه لك فيكتور.

دفع أمام لوكاس بكيس صغير من القماش.

سأله لوكاس:

ـ ما هذا؟

ـ قطعٌ ذهبيّة ومجوهرات. ونقودٌ أيضاً. لم يُمهَل فيكتور الوقتَ لصرف هذا المال. قال لي: «أعِد إلى لوكاس كلّ هذا. لقد دفع لي الكثير نظيرَ المنزل والمكتبة. أمّا أنت يا فيكتور، فأهبُك بيتي، أقصد بيت أختي ووالديَّ. لا ورثةَ لنا، لا أنا ولا أختي. بِع ذاك المنزل. إنّه منزلٌ ملعون. تحيط به اللّعنة منذ طفولتنا. بِعهُ، وعُد إلى المدينة الصّغيرة النّائية، ذلك الموضع المثالي للعيش، الموضع الذي ما كان يجدر بي تركه».

بعد برهة صمتٍ قال لوكاس:

ـ توقّعتَ أنّ فيكتور سيحصل على حكمٍ مخفّف. لا بل إنّك ظننتَ أنّه سيودَع المصحَّ بدلاً من السّجن.

ـ لقد أخطأت التّقدير، وهذا كلّ ما في الأمر. ما كان بوسعي أن

twitter @baghdad_library

أتوقّع أنّ الأطبّاء النّفسيّين سيقرّون بسلامة عقل فيكتور ومسؤوليّته عن أفعاله، ولا بأنّ فيكتور سيتصرّف أثناء محاكمته مثل أبله. لم يبدِ أيّ ندم أو أسفٍ. لم يكُفّ عن ترديد: «كان عليَّ أن أفعلَ ذلك، كان عليّ أنْ أقتلها، تلك كانت الطّريقة الوحيدة الممكنة لأتمكّن من كتابة كتابي». قدّرت هيئةُ المحلّفين أنّه لا يمكن أن نقتل إنساناً بدعوى أنّه يمنعنا من كتابة كتاب. كما أعلنوا أنّ من السهولة بمكان، أن يشربَ المرء بعض الكؤوس، ثمّ يقتل أُناساً شرفاء، وينجو بفعلته. وخلصوا إلى أنّ فيكتور كان فرداً أنانيّاً، شاذاً، وخطيراً على المجتمع. وباستثنائي أنا، شهد كلّ الشّهود ضدّه، لصالح أخته التي كانت تعيش حياةً نموذجيّة، وكانت محبوبةً من طرف الجميع، خاصّة زبوناتها.

سأله لوكاس:

ـ هل استطعت رؤيتَه خارج نطاق المحاكمة؟

ـ بعد الحكم عليه، نعم. صار بوسعي أن أزوره في زنزانته وأبقى معه ما شئت. لقد بقيت برفقته حتّى آخر أيّامه.

ـ أكان خائفاً؟

ـ خائفاً؟ لا أحسب أنّ هذه الكلمة تؤدّي المعنى. في البداية ما كان يصدّق الأمر، ما كان باستطاعته تصديقه. كان يأمل في الحصول على عفوٍ، في حدوث معجزةٍ، أو ما لا أدري. واليوم الذي وقّع فيه وصيّته كان ظاهراً أنّه ما عاد واهماً. وفي آخر مساءٍ من حياته قال لي: «أعلم بأنّي سأموت يا بيتر، لكنّي لا أفهم. بدلاً من جثّة واحدة، جثّة أختي، ستكون ثمّة جثّتان: جثّتها وجثّتي أنا. لكن من ذا الذي يحتاج جثّةً ثانية؟ الله؟ قطعاً لا، فيمَ تفيده أجسادنا! المجتمع؟ سيكسب كتاباً أو كُتباً إن هوَ تركني أعيش، بدلاً من كسب جسدٍ آخر لا يفيد أحداً».

سأله لوكاس:

ـ هل حضرتَ تنفيذ الحكم؟

ـ كلاّ. لقد طلب منّي ذلك، لكنّي رفضت. تجدني جباناً، أليس كذلك؟

ـ ليست هيَ المرّة الأولى. لكنّي أتفهّمك.

ـ أكنتَ ستحضر تنفيذ الحكم فيه، أنت؟

ـ لو أنّه طلب منّي ذلك، أجل، كنتُ سأفعلُ.

twitter @baghdad_library

٧

حُوِّلَت المكتبة إلى قاعة مطالعة. واكتسب بعض الأطفال عادة القدوم إلى القاعة رغبةً في القراءة أو الرّسم، بينما يدخلها آخرون صدفةً، حين يلسعهم البرد أو يأخذ بهم التّعب بعدَ اللّعب طويلاً في الثلج. هؤلاء لا يكادون يبقون أكثر من ربع ساعة، أي الوقت اللازم لكي يستعيدوا الدفء بينما يقلّبون الكتبَ المصوّرةَ. ثمّة أيضاً أولئك الذين يسترقون النّظر عبر زجاج واجهة المحلّ، ويفرّون ما إن يخرج لوكاس لدعوتهم إلى الدّخول.

من حين لآخر، ينزل ماتياس من الشّقة، ويأخذ مكانه بجوار لوكاس مُطالعاً كتاباً، ثمّ يصعد بعد ساعة أو اثنتين، ويعود ساعة الإغلاق. لا يختلط بباقي الأطفال. حين يغادرون، يعيد ماتياس ترتيب الكتب، ويفرغ سلّة المهملات، ويضع الكراسي على الطاولات، ثمّ يمسح الأرضية المبلّلة. كما يقوم بعمليّة الجرد:

ـ لقد سرقوا منّا هذه المرّة سبعة أقلامٍ ملوّنة، وثلاثة كتب، كما أتلفوا عشرات الصّفحات.

يقول لوكاس:

ـ هذا ليس ذا شأن يا ماتياس، لو أنّهم طلبوا تلك الأشياء لأعطيتها لهم. إنّهم يخجلون، يفضلون أخذها خلسةً. الأمر هيِّنٌ.

حوالي نهاية الظهيرة، وبينما الجميع منهمك في القراءة صامتين، دفع ماتياس بورقةٍ أمام لوكاس. كان مكتوباً على الورقة: «أنظر إلى تلك المرأة!» خلف زجاج الواجهة، في عتمة الشّارع، كان ثمّة شبحُ امرأةٍ، هيئة دون وجهٍ تراقب القاعة المضيئة بالمكتبة. قام لوكاس، فاختفى الشّبح. قال ماتياس هامساً:

ـ إنّها تلاحقني حيثما ذهبت. وأثناء فترات الاستراحة تراقبني من خلف سياج ساحة المدرسة. وتقفو خطوي أثناءَ عودتي إلى البيت.

قال لوكاس:

ـ هل سبق أن كلّمتك؟

ـ كلاّ. مرّة واحدة فقط، منذ أيّام، مدّت لي تفّاحة، لكنّي لم أخذها منها. ومرّة أخرى، حين طرحني أربعةُ أطفالٍ أرضاً فوق الثلج وأرادوا أن ينزعوا ملابسي، وبّختهم وعنّفتهم. وهربتُ أنا.

ـ هي إذن ليست شريرة. لقد دافعت عنك.

ـ أجل، لكن لمَ؟ ليس لديها أيّ سبب للدّفاع عنّي. ثمّ، لمَ تلاحقني؟ لمَ تظلّ تنظر إليّ؟ نظرتُها تخيفني. عيناها ترعبانني.

قال لوكاس:

ـ لا تكترث لها يا ماتياس. العديد من النّساء فقدن أولادهنّ أثناء الحرب. لا يستطعنَ نسيانهم. لذا تتعلّق الواحدة منهنّ بطفل يشبه ذاك الذي فقدته.

قال ماتياس ساخراً:

ـ لا أحسب أنّني قد أذكّر أحداً بصورة طفله.

مساءً قرع لوكاس جرس باب خالة ياسمين. فتحت النّافذة:

twitter @baghdad_library

ـ ماذا تريد؟

ـ الحديث معك.

ـ لا وقت لديّ. عليّ الذّهاب إلى العمل.

ـ أنتظرك.

حين خرجت من المنزل، قال لها لوكاس:

ـ سأرافقك. أتعملين كثيراً ليلاً؟

ـ أسبوعاً واحداً من ثلاثة. مثل الجميع. ما الذي تريد الحديث بشأنه؟ أتريد أن نتحدّث عن عملي؟

ـ كلاّ. أريد أن نتحدّث عن الطّفل. أريد فقط أن أطلب منك تركَه وشأنَه.

ـ لم أمسَسْه بسوءٍ.

ـ أعلم. لكنّك تلاحقينه، وتظلّين تنظرين إليه. وهذا يصيبه بالاضطراب. أوَ تفهمين؟

ـ أجل. يا للصغير المسكين. لقد تركَته...

مشيا صامتين في الطّريق الفارغ المغطّى بالثّلج. كانت المرأة تغطّي وجهها بالإيشارب، وكتفاها يهتزّان بشهقات صامتة.

سألها لوكاس:

ـ متى سيتمّ إطلاق سراح زوجك؟

ـ زوجي؟ لقد مات. ألم تعلم بذلك؟

ـ كلاّ. أنا آسفٌ.

ـ أشار التّقرير الرّسميّ إلى أنّه انتحر، بيد أنّي علمت من شخص

كان يعرفه هناك، بأنّه لم ينتحر، وإنّما قتله بعض رفاق زنزانته بسبب ما فعله بابنته.

هما الآن قبالة مصنع النّسج الكبير المضاء بمصابيح النيون. من كلّ الجهات تمرق الأشباحُ الخائفة والمسرعة التي تختفي عبر البوابة المعدنية. وعلى الرّغم من بعد المسافة، كان صوت الآلات مُصِمّاً.

سألها لوكاس:

ـ لو أنّ زوجك لم يمُت، أكُنتِ ستعودين إليه؟

ـ لا أدري. ما كان ليجرؤ على العودة إلى المدينة، في جميع الأحوال أحسبُ أنّه كان سيرحل إلى العاصمة بحثاً عن ياسمين.

بدأت صفارة المصنع تدوّي. قال لوكاس:

ـ سأتركك. ستتأخّرين عن موعد العمل.

رفعت المرأة وجهها الشّاحب، وجهها الشّاب حيث ما تزال تبرق عينا ياسمين السوداوان الكبيرتان:

ـ الآن وقد صرتُ وحيدةً، ربما أستطيع، إن أردتَ ووافقتَ طبعاً، أن آخذ الطّفل للعيش ببيتي.

صاح لوكاس بصوت يفوق دويَّ صفارة المصنع:

ـ أن تأخذي ماتياس؟ أبداً! إنّه لي، لي وحدي! أمنعُك من الاقتراب منه، من النّظر إليه، من الحديث إليه، من ملاحقته!

تحرّكت المرأة صوبَ باب المصنع:

ـ اِهدأ. هل أنت مجنون؟ كان الأمر مجرّد اقتراحِ.

دار لوكاس على عقبَيه وركض صوب المكتبة. وهناك استند إلى جدار المنزل وانتظر أن يعاودَ قلبَه الهدوءُ.

twitter @baghdad_library

دخلت المكتبةَ صبيّةٌ، وتوقّفت أمام لوكاس مبتسمةً:

ـ هل تذكرني يا لوكاس؟

ـ هل أعرفك؟

ـ أنا أنييس.

روّى لوكاس قليلاً ثمّ قال:

ـ كلاّ، لا أذكر، آسف يا آنسة.

ـ مع أنّنا صديقان قديمان. لقد دخلتُ بيتَك ذاتَ مرّة لأسمع الموسيقى. صحيح أنّ سنّي آنذاك لم يكن يتجاوز ستّ سنوات. كنت تريد أن تصنع لي أرجوحةً.

قال لوكاس:

ـ أجل، أذكر. كانت عمّتك ليوني هي من أرسَلك.

ـ نعم، هوَذا. لقد ماتت منذ مدّة. اليومَ مديرةُ المصنع هي من بعثني أشتري كتُباً مصوَّرةً لأطفال الرّوض.

ـ تعملين بالفبرَكة؟ ما تزالين في سنّ المدرسة.

تضرّج وجه أنييس:

ـ أنا في الخامسة عشرة من عمري. لقد تركت المدرسةَ السنةَ الماضيةَ. لا أعمل بالفبركة، أنا مربيّة أطفال. يناديني الأطفالُ آنسة.

ضحك لوكاس:

ـ أنا أيضاً ناديتُك آنسة. مدّت إلى لوكاس ورقةً ماليةً:

ـ أعطني كتباً، وأيضاً أوراقاً وأقلاماً ملوّنةً للرّسم.

كثيراً ما تأتي أنييس إلى المكتبة. تقلّبِ طويلاً الكتبَ على الرّفوف، ثمّ تجلس بين الأطفال، وترسم معهم.

حين رآها ماتياس أوّل مرّة، قال للوكاس:

ـ إنّها امرأة جميلةٌ جداً.

ـ اِمرأة؟ ليست سوى طفلة.

ـ لديها نهدان، هي إذن ليست طفلة.

نظر لوكاس إلى نهدَي أنييس اللذين برَّزَهما معطفٌ أحمر:

ـ أنت مُحقٌّ يا ماتياس، لديها نهدَان. لم ألاحظهما قبل الآن.

ـ وشعرها؟ ألم تلحظه؟ شعرها جميلٌ جداً. أنظر إليه، كم يلمع في الضّوء.

نظر لوكاس إلى شعر أنييس الأشقر الطّويل الذي كان يلمع في الضوء. واصل ماتياس كلامه:

ـ أنظر إلى رموشها السّوداء.

ـ إنّها تضع الكحل.

ـ فمها.

ـ تضع أحمر الشّفاه. الفتيات في سنّها لا ينبغي أن يضعنَ الماكياج.

ـ أنت محقّ يا لوكاس. بدون ماكياج ستكون أيضاً جميلةً.

ضحك لوكاس:

ـ وأنت، في هذه السنّ، لا ينبغي أن تنظر إلى الفتيات.

ـ الفتيات في فصلي، لا أنظر إليهنّ. هنّ غبيّاتٌ وقبيحات.

قامت أنييس من مقعدها، صعدت سلّماً مزدوجاً لتأخذ كتاباً. تنّورتها

twitter @baghdad_library

قصيرةٌ جداً، تبرز منها حاملةُ الجوارب، وجواربُها التحتية التي أفلت منها خيط. لاحظت هي ذلك، فبلّلت سبّابتها، وحاولت بلعابها إيقاف تسرّب الخيط. وكي تتمكّن من ذلك كان عليها أن تنحني، فبدا أيضاً تبّانها الأبيض المزيّن بأزهار وردية، تبّان صبيّة صغيرة.

ذات مساءٍ بقيت حتّى ساعة إغلاق المحلّ. قالت للوكاس:

ـ سأساعدك في التّنظيف.

قال لوكاس:

ـ ماتياس هو من يتكفّل بالتّنظيف. يقوم بذلك على أمثل وجهٍ.

قال ماتياس لأنييس:

ـ إذا ما ساعدتني، سأنتهي من الأمر سريعاً، ويكون بإمكاني تحضير فطائر بالمربّى، إذا ما كنت تحبّينها طبعاً.

قالت أنييس:

ـ جميع النّاس يحبّون الفطائر بالمربّى.

صعد لوكاس إلى غرفته. ولاحقاً ناداه ماتياس:

ـ تعالَ لتأكل يا لوكاس.

أكلوا بالمطبخ فطائر بالمربّى، وشربوا شاياً. ظلّ لوكاس صامتاً، بينما ضحكت أنييس وماتياس كثيراً. بعد الفراغ من الطّعام قال ماتياس:

ـ ينبغي مرافقة أنييس. لقد خيّم اللّيل.

قالت أنييس:

ـ أستطيع العودة وحدي. لا أخشى اللّيلَ.

قال لوكاس:

ـ هيّا، سأرافقك.

وأمام باب بيتها سألتهُ:

ـ ألا ترغب في الدّخول؟

ـ كلاّ.

ـ لمَ؟

ـ لستِ سوى طفلةٍ يا أنييس.

ـ كلاّ، لستُ طفلةً. أنا امرأة. لن تكون أوّلِ من دخل غرفتي. والدايَ ليسا هنا. إنّهما يعملان. وحتّى لو كانا هنا، لديّ غرفتي وأستطيع أن أفعل فيها ما أشاء.

قال لوكاس:

ـ ليلة طيّبة يا أنييس. عليَّ الانصراف.

قالت:

ـ أعلمُ مقصدكَ. أنت ذاهبٌ هناك، إلى الزقاق الصّغير، عند مومسات العساكر.

ـ أجل. لكنّ هذا الأمر لا يعنيك.

في اليوم الموالي، قال لوكاس لماتياس:

ـ قبل أن تدعوَ أحداً إلى الأكل في بيتنا، بإمكانك أن تسألني رأيي أوّلاً.

ـ ألا تعجبك أنييس؟ مؤسفٌ. إنّها مغرمةٌ بك. بسببك تأتي كثيراً إلى هنا.

قال لوكاس:

ـ خيالك واسعٌ يا ماتياس.

ـ ألا ترغب في الزّواج بها؟

twitter @baghdad_library

ـ أتزوّج بها؟ يالها من فكرة! كلاّ، قطعاً.

ـ لمَ؟ أما تزال تنتظر ياسمين؟ لن تعود.

قال لوكاس:

ـ لا أرغب في الزّواج بأيٍّ كان.

الفصلُ ربيع. الباب المُفضي إلى الحديقة مفتوح. يعتني ماتياس بنباتاته وحيواناته. لديه أرنب أبيض، والعديد من القطط، بالإضافة إلى الكلب الأسود الذي أهداه له جوزيف. كما ينتظر بصبرٍ نافذٍ خروج كتاكيت تحضنها إحدى الدّجاجات بالخمّ.

لوكاس ينظر إلى القاعة، حيث ينحني الأطفال على كتبهم مستغرقين في القراءة.

رفع أحد الأطفال عينَيه وابتسم للوكاس. شعره أشقر وعيناه زرقاوان. هي المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى هناك.

لم يستطع لوكاس أن يحيد ببصره عن ذاك الطّفل. جلس خلف المنضدة، فتح كتاباً وواصل اختلاس النّظر إلى الطّفل الغريب. فجأةً، اخترق يدَه اليسرى الموضوعة على الكتاب ألمٌ حادٌ. زُرع بركارٌ في ظاهر يده. شبهَ مشلولٍ من شدّة الألم، استدار لوكاس صوب ماتياس:

ـ لمَ فعلتَ هذا؟

زفر ماتياس من بين أسنانه:

ـ لا أريدك أن تنظر إليه!

ـ لا أنظر إلى أحد.

ـ بلى! لا تكذب! لقد رأيتك وأنت تنظر إليه. لا أريدك أن تنظر إليه بتلك الطّريقة!

نزع لوكاس البركار، وضغط على الجرح بمنديله:

ـ سأصعد لتعقيم الجرح.

حين عاد، كان الأطفال قد رحلوا، وأنزل ماتياس ستار المحلّ الحديدّيَ:

ـ قلتُ لهم إنّنا سنغلق اليومَ باكراً.

ضمّ لوكاس ماتياس بين ذراعيه، وحمله إلى الشقّة، ثمّ أنامَهُ على سريره:

ـ ما بك يا ماتياس؟

ـ لمَ كنت تنظرُ إلى ذلك الطّفل الأشقر؟

ـ لقد ذكّرني بشخصٍ مّا.

ـ ذكّرك بشخصٍ كنتَ تحبّه؟

ـ أجل، ذكّرني بأخي.

ـ لا ينبغي أن تحبَّ أحداً غيري، حتّى أخاك.

صمت لوكاس، وواصل الطّفل كلامه:

ـ لا فائدة ترجى من الذّكاء. أولى للمرء أن يكون وسيماً وأشقر. إذا ما تزوّجتَ سيكون بوسعك إنجابُ أطفالٍ مثله، أقصد الطّفل الأشقر الذي يشبه أخاك. سيكونون أبناءك الفعليّين. شقرٌ وجميلون. لا يعيبهم شوَهٌ. لستُ ابنكَ. أنا ابن ياسمين.

قال لوكاس:

ـ أنت ابني. لا أريد أبناءً آخرين.

twitter @baghdad_library

أظهر يده المعصوبة بالضماد:

ـ هل تدرك أنّك آذيتني؟

قال الطّفل:

ـ أنت أيضاً آذيتني، لكنّك لا تدرك ذلك.

قال لوكاس:

ـ لم أقصد إيذاءك. ينبغي أن تعلم أمراً يا ماتياس: الكائن الوحيد الذي يهمّني أمره في هذا العالم، هو أنت.

قال الطّفل:

ـ لا أصدّقك. وحدها ياسمين كانت تحبّني حقاً، وقد ماتت. لقد قلت لك ذلك مراراً.

ـ ياسمين لم تمُت. لقد رحلت فحسب.

ـ ما كانت لترحل من دوني، وإذن لقد ماتت.

أردف الطّفلُ:

ـ ينبغي غلقُ قاعة المطالعة. ما الذي دهاك، حتّى تقيمها؟

ـ فعلتُ ذلك لأجلك. ظننت أنّها ستمكّنك من نسج صداقاتٍ.

ـ لا أريد أصدقاءَ. لم أطلب منك يوماً قاعةَ مطالعة. لا بل على العكس من ذلك، أطلب منك إغلاقها.

قال لوكاس:

ـ سأغلقها. سأقول للأطفال غداً، إنّ الجوّ جميلٌ، وبإمكانهم أن يقرؤوا ويرسموا بالخارج.

عاد الطّفلُ الأشقر في اليوم الموالي. لم ينظر لوكاس ناحيته، وإنّما ثبّتَ نظرَه على أسطر وحروف كتابٍ موضوع أمامه. قال ماتياس:

ـ أما عُدتَ تجرؤ على النّظر ناحيته؟ مع أنّ الرغبة في النّظر إليه تأكلك. مضت خمس دقائق دون أن تقلبَ صفحة الكتاب الذي تقرؤه.

أغلق لوكاس الكتاب ودفن وجهَه بين كفّيه.

دخلت أنييس إلى المكتبة، فهرع ماتياس إلى لقائها، وقبّلته. سألها ماتياس:

ـ لمَ توقّفت عن زيارتنا؟

ـ لم يكن لديّ وقتٌ. كنت أتابع دروساً في مدينة مجاورة، كي أصيرَ مربيّة. لم أكن آتي إلى المدينة إلا لماماً.

ـ لكنّك ستبقين الآن هنا، في مدينتنا؟

ـ أجل.

ـ هل تأتين لتناول فطائر المربّى معنا هذا المساء؟

ـ كان بودّي ذلك، لكن عليّ الاعتناء بأخي الصّغير. والدانا يشتغلان.

قال ماتياس:

ـ أحضري أخاك الصّغير معك. سيكون ثمّة ما يكفي من الفطائر. سأصعد الآن لإعداد العجين.

ـ وأنا سأنظّف المحلّ بَدلك.

صعد ماتياس إلى الشّقة، وقال لوكاس للأطفال:

ـ خذوا الكتب الموضوعة على طاولاتكم. وخذوا الأوراق أيضاً، وليحمل كلّ واحدٍ منكم علبة أقلام ملوّنة. لا ينبغي أن تحبسوا أنفسكم هنا إبّان هذا الفصل الرّائع. اِذهبوا للقراءة والرّسم في حدائق بيتكم أو في الحدائق العموميّة. إن احتجتم شيئاً تعالوا واطلبوه منّي.

twitter @baghdad_library

خرج الأطفال، ولم يبقَ في نهاية المطاف سوى الصّغير الأشقر، جالساً في موضعه بوداعة. سأله لوكاس برفق:

ـ وأنت؟ ألن تذهب؟

لم يُجب الطّفل، فاستدار لوكاس صوب أنييس:

ـ لم أكن أعلم بأنّه أخوك. لم أكن أعلم عنه شيئاً.

ـ إنّه خجول. اسمه صامويل. أنا من نصحته بالقدوم إلى هنا، إذ بدأ يعرف القراءة. هوَ آخر العنقود. أخي سيمون يعمل في الفبركة منذ خمس سنوات. إنّه سائق شاحنة.

قام الطّفل الأشقر، وأمسك بيد أخته:

ـ سنتناول فطائر عند السيّد؟

قالت أنييس:

ـ أجل، هيّا لنصعد، ينبغي أن نساعد ماتياس.

صعدا السلالم المفضيَة إلى الشقّة. بالمطبخ كان ماتياس يخلط عجين الفطائر. قالت أنييس:

ـ ماتياس، أقدّم لك أخي الصّغير. اسمه صامويل. باستطاعتكما أن تصيرا صديقَين، فهو يقربك سناً.

جحظت عينا ماتياس، أرخى الملعقة الخشبيّة من يده، وغادر المطبخ. اِستدارت أنييس جهةَ لوكاس:

ـ ما الخطب؟

قال لوكاس:

ـ لابدّ أنّ ماتياِس قد ذهب يبحث عن شيء مّا في غرفته. اِبدئي تحضير الفطائر يا أنييس، سأعود.

دخل لوكاس إلى غرفة ماتياس. كان الطّفل مضطجعاً على سريره، وقال:

ـ دعني وشأني. أريد أن أنام.

ـ أنت من دعاهُما يا ماتياس. إنّها مسألة كياسة.

ـ لقد دعوت أنييس، لم أكن أعلم بأنّه أخوها.

ـ أنا أيضاً ما كنت أعلم ذلك. ابذل مجهوداً في سبيل أنييس يا ماتياس. ألا تحبُّ أنييس؟

ـ وأنت، تحبّ أخاها. حين رأيتكم قادمين جميعاً إلى المطبخ، أدركت أنّكم تشكّلون أسرةً حقيقيّة. والدَين أشقرين جميلَين مع ابنهما الجميل الأشقر. أنا لا عائلة لي. لا أمّ لي ولا أب، لستُ أشقرَ، أنا قبيح ومشوَّه.

ضمّه لوكاس إليه:

ـ ماتياس، يا ولدي الصّغير. أنت حياتي كلّها.

اِبتسم ماتياس:

ـ حسناً، هيّا نأكل.

بالمطبخ، كانت المائدة موضوعةً وفي صدرها كومةٌ عظيمة من الفطائر.

أنييس تتحدّث كثيراً، وكثيراً ما تقوم من مقعدها لتقديم الشّاي. تهتمّ بالطّفلين معاً:

ـ مربّى؟ جبن؟ شوكولاتة؟

لوكاس يراقب ماتياس. يأكل قليلاً، ويرنو إلى الطّفل الأشقر دون أن يستطيع إزاحة عينَيه عنه. الطّفل الأشقر يأكل كثيراً، يبتسم للوكاس حين

twitter @baghdad_library

تلتقي عيونهما، ويبتسم لأخته حين تمدّ له شيئاً، لكن حين تصادف عيناه الزرقاوان نظرة ماتياس السّوداء، يغضّ طرفَه.

غسلت أنييس الأواني مع ماتياس. بينما صعد لوكاس إلى غرفته. لاحقاً ناداه ماتياس:

ـ ينبغي مرافقة أنييس وأخيها.

قالت أنييس:

ـ لسنا خائفَين من العودة بمفردنا.

ألحّ ماتياس:

ـ إنّها مسألة كياسة. رافِقهُما.

رافقهما لوكاس. تمنّى لهما ليلة طيّبةً، ثمّ ذهب للجلوس على مقعد بحديقة مريضِ الأرق.

قال مريض الأرق:

ـ إنّها الثالثة والنّصف صباحاً. في الحادية عشرة أوقد الطّفلُ ناراً في غرفته. ناديتُه، على الرّغم من أنّها ليست من عاداتي. خفت أن يتسبب في حريق بالمنزل. سألته عمَّ يفعله، فأجابني بأن لا أقلق، وأنّه فقط يقوم بإحراق واجباته المدرسية القديمة في دلو حديد أمام النّافذة. سألته لمَ لا يقوم بحرقها في فرن المطبخ، فقال لي إنّه لا يرغب في الذّهاب حتّى المطبخ للقيام بأمرٍ مماثل. اِنطفأت النّارُ بعد ذلك بقليلٍ، ولم أرَ بعدها الطّفلَ ولا سمعتُ صوتاً.

صعدَ لوكاس السلالم، ودخل غرفتَه، ثمّ دخل غرفةَ الطّفل. أمام النّافذة ثمّة دلو حديد به أوراقٌ محروقة. فراشُ الطّفل فارغٌ. وعلى

الوسادة دفتر أزرقٌ، مغلق. عليه ملصقٌ كُتب فيه: **دفتر ماتياس. فتح** لوكاس الدّفتر. ليس في الدّفتر سوى صفحاتٍ بيضاء وأوراق منزوعة. أزاحَ لوكاس الستارَ الأحمر الغامق. بجانب هيْكلَي الأمّ والرّضيعة، جسد ماتياس الصّغير مشنوقاً، وقد بدأ يزرقُّ.

سمع مريضُ الأرق صيحةً عظيمةً. نزل إلى الشّارع، رنّ جرس بيت لوكاس، لكن لم يُجبهُ أحد. صعد الشيخ السلالم، ودخل غرفةَ لوكاس، لمحَ باباً آخرَ ففتحه. على السّرير لوكاس راقدٌ يضمّ جسدَ الطّفل إلى صدره.

ـ لوكاس؟

لم يحر لوكاس جواباً، عيناه جاحظتان مثبّتتان على السّقف.

هرع مريض الأرق إلى الشّارع، رنّ على جرس بيت بيتر، ففتح بيترَ النّافذة:

ـ ما الخطبُ يا مايكل؟

ـ لوكاس بحاجةٍ إليك. لقد حدثت مصيبةٌ. تعالَ.

ـ عد إلى بيتك يا مايكل. سأهتم بالأمر.

صعد بيتر إلى بيت لوكاس. رأى سطل الحديد، والجسدين راقدَين معاً عل السّرير. أزاح السّتار، فاكتشف الهيكلَيْن العظميَّين، وعلى العارضة نفسها قطعةٌ من حبلٍ جُزَّ بموسى حلاقة. عاد جهةَ السّرير، أزاح برفقٍ جسدَ الطّفل، وصفع لوكاس صفعتَين:

ـ إِنتبه!

أغمض لوكاس عينيه، فهزّه بيتر:

ـ أخبرني ما الذي حدث!

twitter @baghdad_library

قال لوكاس:

ـ إنّها ياسمين. لقد استعادت الطّفل منّي.

قال بيتر بلهجةٍ شديدة:

ـ لا تُعد هذه الجملة أبداً أمام أحد غيري يا لوكاس. هل فهمت؟ انظر إليَّ!

حدّق لوكاس في بيتر:

ـ أجل، فهمتُ. ما الذي ينبغي أن أفعله الآن يا بيتر؟

ـ لا شيء. اِبقَ راقداً. سآتيك بمهدّئات. كما سأهتمّ بالأمور الرّسمية.

اِحتضن لوكاس جسد ماتياس:

ـ شُكراً يا بيتر، لا أحتاج مهدّئاتٍ.

ـ لا تحتاجها؟ حاول إذن على الأقلّ أن تبكي. أين هي مفاتيحك؟

ـ لا أدري. ربّما بقيَت في قفل باب المدخل.

ـ سأحبسك هنا. لا يمكنك أن تخرج إلى الشّارع وأنت في هذه الحالة. سأعود.

عثر بيتر على كيس بالمطبخ، نزع الهيكلَين من العارضة، دسّهما في الكيس، وحملهُما إلى بيتِه.

لوكاس وبيتر يسيران خلف عربة جوزيف حيث حُمل تابوت الطّفل.

بالمقبرة، حفّارٌ جالساً على كومة تراب يأكل لحم خنزيرٍ مقدّد بالبصل.

دُفنَ ماتياس في قبر جدّة لوكاس وجدِّه.

حين ملأ الحفّار القبر تراباً، غرز لوكاس بنفسه الصّليب المنقوش عليه: «ماتياس» وتاريخَيْن. لقد عاش الطّفل سبع سنين وأربعة أشهر.

سأله جوزيف:

ـ هل أعيدك إلى البيت يا لوكاس؟

أجابه لوكاس:

ـ عُد إلى بيتك يا جوزيف، وشكراً. شكراً لك على كلّ شيء.

ـ لا فائدة من البقاء هنا.

قال بيتر:

ـ هيّا يا جوزيف. سأعود معك.

أنصت لوكاس إلى صوت ابتعاد العربة. جلس بجانب القبر. العصافير تغرّد.

مرّت بصمتٍ امرأةٌ متلفّعةٌ بالسّواد، ووضعت باقةَ بنفسج أسفل الصّليب.

لاحقاً عاد بيتر. أمسك كتف لوكاس:

ـ تعالَ يا لوكاس. الليل يوشك يجِنّ.

قال لوكاس:

ـ لا أستطيع أن أتركه هنا، وحده ليلاً. يخافُ اللّيل. ما يزالُ صغيراً جداً.

ـ كلاّ، لم يعد الآن يشعر بالخوف. تعالَ يا لوكاس.

قام لوكاس، وحدّق في القبر:

ـ كان عليّ أن أتركه يرحل مع أمّه. لقد ارتكبتُ خطأً قاتلاً يا بيتر حين أردت الاحتفاظ بالطّفل مهما كان المقابل.

twitter @baghdad_library

قال بيتر:

ـ كلّ منّا يرتكب في حياته أخطاءً قاتلةً، وحين ندرك ذلك يكون أوان الإصلاح قد فات.

نزلا المدينةَ. وأمام المكتبة سأله بيتر:

ـ هل ترغب في المجيء عندي، أم تفضّل البقاء بمفردك؟

ـ أفضّل العودة إلى بيتي.

عاد لوكاس إلى بيته. جلس إلى مكتبه، نظر صوبَ باب غرفة الطّفل المغلقة، فتح دفتراً مدرسياً وكتب فيه:

«بالنّسبة لماتياس، كلّ شيء على ما يرام. ما يزال الأوّل في فصله. ولم يعد يرى الكوابيس.»

أغلق لوكاس الدّفتَر، خرج من المنزل، عاد إلى المقبرة، ورقد فوق قبر الطّفل.

فجراً أتاه مريض الأرق يوقظهُ:

ـ تعالَ يا لوكاس. ينبغي أن تفتح المكتبة.

ـ أجل يا مايكل.

٨

وصل كلاوس بالقطار. لم تتغيّر المحطّة الصّغيرة. فقط صار المسافرون اليوم يجدون في انتظارهم حافلةً.

لم يستقلّ كلاوس الحافلة، سارَ مشياً حتّى وسط المدينة. أشجار الكستناء مزهرةٌ، والشّارع قفرٌ وصامتٌ، مثلما كان فيما مضى.

بساحة برانسيبال، توقّف كلاوس. مكانَ البيوت البسيطة الواطئة، تنتصب اليوم بنايةٌ من طابقَين: فندقٌ. دخل كلاوس إلى البناية وسأل عاملة الاستقبال:

ـ متى أُقيمَ هذا الفندق؟

ـ منذ عشر سنوات تقريباً يا سيّدي. هل تريد غرفةً؟

ـ لا أدري بعد. سأعود بعد ساعاتٍ. هل تستطيعين الاحتفاظ بحقيبتي في انتظار ذلك.

ـ على الرّحب والسّعة.

واصل كلاوس مسيرتَه، عابراً المدينة، تاركاً خلفه المنازلَ، وسلك طريقاً غير معبّدة تفضي إلى ملعب رياضيّ. قطع كلاوس الملعب وجلس على العشب عند ضفّة النّهر. بعد ذلك بمدّة، بدأ الأطفالُ يلعبون الكرة. سأل كلاوس أحدَهم:

ـ منذ متى وهذا الملعب هنا؟

twitter @baghdad_library

هزّ الطّفل كتفَيْه:

ـ هذا الملعب، كان دائماً هنا.

عاد كلاوس إلى المدينة، صعد إلى القلعة، ثمّ إلى المقبرة. بحث طويلاً، دون أن يستطيع العثور على قبر الجدّة والجدّ. هبط المدينةَ، جلس على مقعد بساحة برانسيبال، وأخذ يتابع النّاس المستغرقين في التّبضّع، أو العائدين من أشغالهم، المتجوّلين على الأقدام أو الدّراجات. السيارات قليلة جداً.

حين أغلقت المتاجر، صارت الساحة خالية، وعاد كلاوس إلى الفندق:

ـ سآخذ غرفة يا آنسة.

ـ كم يوماً؟

ـ لستُ أدري بعد.

ـ هل لي بجواز سفرك سيّدي؟

ـ تفضّلي.

ـ أنت أجنبيٌّ؟ أين تعلّمت الحديث بلغتنا بهذه الطلاقة؟

ـ هنا. لقد قضيتُ طفولتي في هذه المدينة.

نظرت إليه:

ـ حدث هذا منذ زمنٍ بعيدٍ إذن.

قال كلاوس ضاحكاً:

ـ أبدو لك إذن مسنّاً إلى هذه الدرجة؟

تضرّجت الشّابة بالحمرة:

ـ كلاّ، كلاّ، ليس هذا ما قصدتُه. سأعطيك أجملَ غرفنا، تكاد الغرفُ تكون جميعها فارغة، لم يبدأ موسم السياحة بعد.

ـ يأتيكم الكثير من السيّاح؟

ـ في الصّيف، يأتي الكثير منهم. أنصحك أيضاً بالأكل في مطعمنا يا سيّدي.

صعد كلاوس إلى الغرفة بالطّابق الأوّل. نافذتاها تطلاّن على السّاحة.

تناول كلاوس عشاءه بالمطعم الفارغ، ثمّ عاد إلى غرفته. فتح الحقيبة، ورتّب ملابسَه بالدولاب، سحب أريكةً صوب النّافذة وأخذ يراقب جالساً الشّارع القفر. في الجهة الأخرى للسّاحة ظلّت البيوت كما هي، لم تُمسّ. لقد تمّ ترميمها، وصُبغت بالورديّ والأصفر والأزرق والأخضر. الطابق الأرضيّ من كلّ بيت يحتله أحد المتاجر: بقّال، «ذكريات»، محلبة، مكتبة، «موضة». المكتبة تقع في منزل أزرق، هناكَ حيث كانت منذُ أيّامِ طفولة كلاوس، حينَ كان يأتيها راغباً في شراء الأوراق والأقلام.

في اليومِ الموالي، عاد كلاوس إلى الملعب الرياضيّ، والقلعة، والمقبرة، والمحطّة. حين استبدّ به التّعب، دخل إحدى الحانات، ثمّ جلس في حديقة. وحين كاد الزوال ينقضي عاد إلى ساحة برانسيبال، ودلف إلى المكتبة.

خلف المنضدة رجلٌ أشقر، يقرأ على ضوء مصباح مكتب. المتجر غارق في الغبش، وليس ثمّة أيّ زبون. قام الرّجل الأشقر:

ـ عفواً، لقد نسيتُ إيقاد الأنوار.

twitter @baghdad_library

أضيئت القاعةُ وواجهةُ العرض. سأله الرّجل:

ـ أيّ خدمة يا سيّدي؟

قال كلاوس:

ـ لا تزعج نفسك. أنا أنظر فقط.

نزع الرّجل نظاراته:

ـ لوكاس!

اِبتسمَ كلاوس:

ـ أنت تعرف أخي إذن! أين هو؟

ردّد الرّجل:

ـ لوكاس!

ـ أنا أخو لوكاس. أدعى كلاوس.

ـ كفى مزاحاً يا لوكاس. أرجوك.

أخرج كلاوس جواز سفره من جيبه:

ـ انظر بنفسك.

تفحّص الرّجل جواز السّفر:

ـ هذا ليس برهاناً على شيء.

قال كلاوس:

ـ أنا آسف، لا وسيلة أخرى لديّ للتدليل على هويّتي. أنا كلاوس ت. وقد أتيت باحثاً عن أخي لوكاس. أنت تعرفه. ولا ريب في أنّه قد حدّثك عن أخيه كلاوس.

ـ بلى، كثيراً ما كان يحدّثني عنك. لكن عليّ الاعتراف بأنّي ما صدّقت يوماً بوجودك.

قال كلاوس ضاحكاً:

ـ أنا أيضاً حين كنتُ أحدّث أحدَهم عن لوكاس، ما كان يصدّقني. الأمر هزليٌّ. ألا ترى ذلك؟

ـ لا، ليس تماماً. تعالَ، لنجلس هنا.

أشار إلى طاولةٍ واطئة وأرائك أقصى المحلّ، أمام الباب ذي النّوافذ الذي ينفتح على الحديقة.

ـ إن لم تكن أنت هو لوكاس، ينبغي إذن أن أقدّم لك نفسي. اِسمي بيتر. بيتر ن. لكن، إن لم تكن أنت هو لوكاس، لمَ دخلت إلى هنا بالضّبط؟

قال كلاوس:

ـ لقد وصلت أمس. أوّل ما قصدتُه هو بيت الجدّة، لكنّه لم يعد قائماً. ثمّة ملعب رياضيّ في مكانه. إذا ما دخلت هنا، فلأنّ هذا المكان كان مكتبةً منذ أيّام طفولتي. كثيراً ما كنّا نأتي إلى هنا لشراء الأوراق والأقلام. ما زلتُ أذكر الرّجل الذي كان يدير هذه المكتبة، رجلٌ شاحبٌ وبدينٌ. هو من كنت أحسب أنّي سألقاه هنا.

ـ فيكتور؟

ـ لا أدري ما اسمه. لم أعرفه يوماً.

ـ كان اسمُه فيكتور. لقد مات.

ـ بالطّبع. فهو لم يكن صغير السنّ آنذاك.

ـ هوَذا.

twitter @baghdad_library

أخذ بيتر ينظر إلى الحديقة وهي تغرق في الظلام. قال كلاوس:

ـ حسِبتُ لسذاجتي، أنّي سأجد لوكاس في بيت الجدّة، بعد كلّ هذه السّنين. أين هوَ؟

واصلَ بيتر التّحديق في اللّيل:

ـ لا أدري.

ـ هل ثمّة في المدينة من بإمكانه أن يعرف؟

ـ كلاّ، لا أعتقد.

ـ أكنت تعرفُه حقَّ المعرفة؟

حدّق بيتر في عينَي كلاوس:

ـ حقّ المعرفة.

اِنحنى بيتر من فوق الطّاولة وأمسك بكتفَي كلاوس:

ـ كفى يا لوكاس، أوقف هذه التمثيليّة! لا فائدة من ذلك! ألا تخجل من فعل هذا بي؟

خلّص كلاوس نفسَه من قبضتَي بيتر، وقام:

ـ أرى أنكما، أنت ولوكاس، كنتما مرتبطَين أشدَّ الارتباط.

تهاوى بيتر على أريكته:

ـ أجل، أشدَّ الارتباط. أستسمحُ يا كلاوس. لقد عرفت لوكاس منذ كان في الخامسة عشرة من عمره. وقد اختفى عندما بلغ الثلاثينَ.

ـ اِختفى؟ هل تقصدُ أنّه ترك المدينة؟

ـ ترك هذه المدينة، وربما ترك البلاد برمّتِها. وها هو اليومَ يعود حاملاً اسماً آخرَ. لطالما وجدت لعبة الأسماء هذه بليدةً.

ـ كان جدُّنا يحمل هذا الاسم المزدوج، كلاوس ـ لوكاس. أمّنا كانت تحبّ والدَها كثيراً، فمنحتنا اسمَيه. ليس لوكاس هو من أمامك يا بيتر، إنّه أنا كلاوس.

قام بيتر:

ـ حسناً يا كلاوس. في هذه الحال، ينبغي أن أسلّمك شيئاً، ائتمنني عليه أخوك لوكاس. اِنتظرني.

صعد بيتَر إلى الشقّة، وعاد حاملاً خمسة دفاتر مدرسيّة كبيرة:

ـ خذ. إنّها لك. كان عددها في البداية أكثر من هذا. لكنّه كان يراجعها دائماً، مصحّحاً وحاذفاً كلّ ما يبدو أنّه يمكن الاستغناء عنه. لو أنّ الوقت حالفه، أظنّ أنّه كانَ سيحذف كلّ شيء.

هزّ كلاوس رأسه:

ـ كلاّ. لقد كان سيحتفظ لي بالأساسيّ.

أخذ الدّفاتر. وقال مبتسماً:

ـ هوَذا أخيراً البرهانُ على وجود لوكاس. شكراً يا بيتر. ألم يقرأها أحد؟

ـ باستثنائي أنا، لم يطّلع عليها أحد.

ـ أنا مقيم بالفندق المقابل. سأعود لرؤيتك.

ظلّ كلاوس يقرأ اللّيلَ بأكمله، ومن حين إلى آخر يرفع بصره لينظر إلى الشّارع.

فوق المكتبة، ظلّت نافذتان من نوافذ الشّقة الثلاث مضاءةً، بينما ظلّت الثالثة مظلمة.

twitter @baghdad_library

صباحاً رفع بيتر ستار المحلّ الحديديَ، وخلد كلاوس للنّوم. بعد منتصف اليوم، غادر كلاوس الفندق، وتناول وجبةً في إحدى الحانات الشّعبيّة بالمدينة، حيث يقدّمون وجباتٍ ساخنةً في أيّ وقتٍ من اليوم.

السماء ملبّدة بالغيوم. عاد كلاوس إلى ملعب الرّياضة، وجلس عند ضفّة النّهر. ظلّ جالساً هناك إلى أن أرخى اللّيلُ سدولَه وبدأت السّماء تمطر.

حين بلغَ كلاوس ساحةَ برانسيبال، كانت المكتبة قد أُقفلَت. رنّ كلاوس جرس باب مدخل الشقّة. مال بيتر من النّافذة:

ـ البابُ غير مغلق. كنت بانتظارك. ما عليك إلاّ أن تصعدَ.

ألفى كلاوس بيتر بالمطبخ. على الموقد العديدُ من المقالي. قال بيتر:

ـ الطعام ليس جاهزاً بعد. عندي قليل من ماء ـ الحياة. أتريدُ منه؟

ـ أجل. لقد قرأت الدّفاتر. ما الذي حدث بعد ذلك؟ أقصد بعد موت الطّفل.

ـ لا شيء. واصلَ لوكاس عمله. كان يفتح المكتبةَ صباحاً، ويغلقها مساءً. يخدم الزبائن دون أن ينبس بكلمة. ما عاد يتكلّم تقريباً. بعض الأشخاص ظنّوه أبكمَ. كنت آتي لزيارته أحياناً، فنلعب الشطرنج صامتَيْن. كان يلعب بشكلٍ سيّء. ما عاد يقرأ أو يكتب. أعتقد أنّه كان يأكل قليلاً، ولا يكاد ينام البتّة. يظلّ المصباحُ بغرفته مضاءَ اللّيل بأكمله، لكنّه لا يكون بالغرفة. كان يجوب شوارع المدينة المعتمة والمقابرَ. كان يردّد أنّ أمثل موضعٍ للنّوم هو قبرُ شخص أحببناه.

صمتَ بيتر، وصبّ كأساً لكلاوس:

ـ حسناً. خمسَ سنواتٍ بعد ذلك، بدأت أشغال تهيئة ملعب

الرّياضة، وعلمتُ بأنّهم عثروا على جثّة امرأة مدفونةٍ عند ضفّة النّهر، قرب بيت جدّتكما. أخطرتُ لوكاس. شكرني، ثمّ اختفى في اليوم الموالي. لم يرَه أحدٌ منذ ذلك اليوم. على مكتبه، ترك لي رسالةً يهبني بموجبها المكتبةَ والمنزل. المحزنُ في الأمر حقاً، هو أنّهم لم يستطيعوا تحديد هويّة رفات ياسمين. حفظت السّلطات التّحقيق. ذاك أنّ الجثث كثيرةٌ ومنتشرة في كلّ موضع من تراب هذا البلد الشقيّ، منذ أيّامِ الحرب والثورة. كان وارداً أن يكون ذاك الجسد جسدَ أيّ امرأة حاولتَ أن تعبر الحدود ففجّرها لغمٌ. ما كان ثمّة من مبرِّر ليقلقَ لوكاس.

قال كلاوس:

ـ بوسع لوكاس أن يعود الآن. لقد سقطت القضيّة بالتّقادم.

ـ أجل، أعتقد ذلك. بعد عشرين سنةً تتقادم القضيّة.

حدّق بيتر في عينَي كلاوس:

ـ أجل يا كلاوس. بوسع لوكاس أن يعود الآن.

بادل كلاوس بيتر النظرات:

ـ أجل يا بيتر. من الوارد أن يعود لوكاس.

ـ يقال إنّه يختفي بالغابة، وأنّه يعود ليجوب أزقّة المدينة ما إن يجنّ اللّيل. لكنها ليست سوى أقاويل.

هزّ بيتر رأسه:

ـ تعالَ إلى غرفتي يا كلاوس، سأريك رسالة لوكاس.

قرأ كلاوس:

ـ «أعهد بمنزلي والمكتبة التي تشكّل جزءاً منه إلى بيتر ن. ـ شرطَ أن

twitter @baghdad_library

يترك الأمور على حالها ـ حتّى عودتي، أو عودة أخي كلاوس ت.
توقيع: لوكاس ت.»

قال بيتر:

ـ هو من سطّر على «الأمور على حالها». والآن، أياً كنتَ، كلاوس أو لوكاس، هذا المنزل ملكٌ لك.

ـ لم آت يا بيتر إلا في زيارةٍ قصيرة. أملك فيزا لثلاثين يوماً فقط. أنا الآن مواطنٌ أجنبيٌ. وكما تعلمُ لا يحقُّ لأيّ مواطنٍ أجنبيّ أن يمتلك أيّ عقارٍ هنا.

قال بيتر:

ـ لكن بإمكانك أن تأخذ النّقود التي كنت أحصل عليها من المكتبة، والتي واظبت على إيداعها في البنك منذ عشرينَ سنة.

ـ مِمَّ تعيشُ إذن؟

ـ لديَّ تقاعدُ موظَّفٍ سابق، إضافة إلى عائداتي من تأجير منزل فيكتور. لأجلكما فقط ما أزال أدير المكتبة. أحتفظ بالحسابات، وبإمكانك الاطّلاع عليها.

قال كلاوس:

ـ شكراً يا بيتر. لست بحاجة إلى المال، ولا أرغب في الاطّلاع على الحسابات. لقد عدتُ فقط لرؤية أخي.

ـ لمَ لم تُراسله قطّ؟

ـ لقد قرّرنا الفراق. وكان لزاماً أن يكون هذا الفراق كليّاً. ما كانت الحدود تكفي لذلك، وإنّما كان يلزمنا أيضاً الصّمتُ.

ـ ومع ذلك، ها أنت قد عُدتَ. لمَ؟

ـ لقد دامت التّجربة ما يكفي. أنا متعبٌ ومريضٌ، وارغب في رؤية لوكاس.

ـ لكنّك تعلم جيّداً بأنّك لن تراه أبداً.

نادى صوتُ امرأةٍ من الغرفة المجاورة:

ـ ثمّةً أحدٌ يا بيتر؟ من هناك؟

نظر كلاوس إلى بيتر:

ـ لديك امرأةٌ يا بيتر؟ هل تزوّجت؟

ـ كلاّ، إنّها كلارا.

ـ كلارا؟ ألم تمُت؟

ـ خِلناها ماتت. لكنّها كانت معتقلةً فحسب. بعد اختفاء لوكاس بمدّة يسيرة عادت. لم تكن تملك لا عملاً ولا مالا. كانت تبحث عن لوكاس. آويتها في بيتي، أقصد هنا. صارت تقيم بالغرفة الصغيرة، غرفة الطّفل. أعتني بها. هل تريد مقابلتها؟

ـ أجل، أرغب في ذلك.

فتح بيتر باب الغرفة:

ـ لدينا زائرٌ يا كلارا، إنّه صديق.

دلف لوكاس إلى الغرفة. كلارا جالسة على كرسيّ هزّاز أمام النّافذة. على ركبتَيها غطاءٌ وعلى كتفَيها شالٌ. تمسك كتاباً، لكنّها لا تقرأ فيه. نظرتها ضائعة عبر فتحة النّافذة. تتأرجح.

قال كلاوس:

ـ مساء الخير يا كلارا.

لم تنظر كلارا صوبه، وتلت بصوت رتيب:

twitter @baghdad_library

ـ إنّها تمطر كدأبِها. مطرٌ رقيق وباردٌ، يسقط على المنازل والأشجار والقبور. حين يأتـ«ون» لزيارتي، ينهمر المطر على وجوههم الشّائهة. ينظر«ون» إليّ، فيشتدُّ البردُ. جدراني ما عادت تحميني. لم تحمِني يوماً. صلابتها مجرّد وهم، وبياضُها دنسٌ.

تغيَّر صوتُها فجأةً:

ـ أنا جائعةٌ يا بيتر! متى سنأكل؟ أنت دائماً تؤخِّر الأكلَ.

عاد بيتر إلى المطبخ، فقال كلاوس:

ـ إنّه أنا يا كلارا؟

ـ أهوَ أنت؟

نظرت إلى كلاوس، ومدّت إليه ذراعها. جثا عند قدميها، ضمّ ساقَيْها ووضع رأسه على ركبتَيها. بدأت كلارا تداعب شعره. أخذ كلاوس يدَ كلارا، ضغط بها على خدّه، لصقَ شفتَيْه. يدٌ يابسةٌ، نحيلة، ملأتها آثارُ الشيخوخة.

قالت:

ـ لقد تركتَني وحيدةً طويلاً، طويلاً جداً يا توماس.

سالت على وجهها دموع، فمسحها كلاوس بمنديله:

ـ أنا لستُ توماس. ألا تذكرين لوكاس؟

أغمضت كلارا عينيها، وهزّت رأسها:

ـ لم تتغيَّر يا توماس. لقد هرمتَ قليلاً، لكنّك ما تزال كما كنتَ. قبّلني.

اِبتسمت عن فمٍ أدردٍ.

تراجع كلاوس، ثمّ قام. قصدَ النّافذة، وتأمّل الشّارع. ساحة

برانسيبال خاويةٌ، كئيبةٌ تحت المطر. وحده الفندق الكبير يبرز في الظّلام بفضل واجهته المضاءة.

عادت كلارا تتأرجح:

ـ اِرحل من هنا. من أنت؟ ماذا تفعل في غرفتي؟ لمَ لم يأتِ بيتر؟ ينبغي أن أتعشى وأنام. الوقت متأخّرٌ.

غادر كلاوس غرفة كلارا، ولحق ببيتر إلى المطبخ:

ـ كلارا جائعة.

حمل بيتر صينية الطّعام إلى كلارا. وحين عاد قال:

ـ إنّها تهتم كثيراً بالطّعام. أحمل إليها الصينية ثلاث مرّاتٍ في اليوم. لحسن الحظ أنّها تنام كثيراً بفعل أدويتها.

ـ هيَ حملٌ كبيرٌ بالنّسبة لك.

قدّم بيتر لكلاوس يخنةً بالمعجّنات:

ـ كلاّ، ليس إلى هذا الحدّ. إنّها لا تزعجني. هي تعاملني كما لو كنتُ خادمَها. لكنّي لا أكترث للأمر. كُل يا كلاوس.

ـ لستُ جائعاً. ألا تخرجُ أبداً؟

ـ كلارا؟ كلاّ. لا رغبةَ لها في ذلك. وفي جميع الأحوال، إن خرجَت ستتوه. تقرأ كثيراً، وتحبُّ تأمّل السّماء.

ـ ومريض الأرق؟ من المفترض أنّ منزله كان يقع في الجهة المقابلة، حيث يوجد اليوم الفندق.

قام بيتر:

ـ بلى. أنا أيضاً لست جائعاً. هيا لنخرج.

مشيا في الشّارع. أشار بيتر إلى منزلٍ:

twitter @baghdad_library

ـ هنا كنتُ أسكنُ فيما مضى، في الطّابق الأوّل. إن لم تكن متعباً أستطيع أن أُريَك أيضاً البيت حيث كانت تسكن كلارا.

ـ لست متعباً.

توقّف بيتر أمام بيتٍ بلا طوابق، بشارع المحطّة:

ـ هنا كانت تسكن. سيتعرّض هذا المنزل للهدم، شأنه شأن بيوت هذا الشارع جميعها. إنّها قديمةٌ جداً ومتداعية.

اِرتجف كلاوس:

ـ لِنعُد أدراجنا. أكاد أتجمّد.

اِفترقا عند باب الفندق. قال كلاوس:

ـ لقد ذهبت عدّة مرّات، لكنّي لم أعثر على قبر جدّتي.

ـ سأريكَهُ غداً. تعالَ إلى المكتبة في السادسة مساءً. سيكون الوقت ما يزالُ نهاراً.

في مكانٍ مهجورٍ من المقبرة، غرز بيتر مظلَّتَه في الأرض:

ـ هنا موضع القبر.

ـ أنّى لك هذا اليقين؟ لا أرى سوى أعشاب ضارّة، ولا صليب، أو أيّ علامة. قد تكون مخطئاً.

ـ أُخطئ؟ لو علمتَ كم مرّةً أتيت هنا باحثاً عن أخيكَ لوكاس. وحتّى بعد اختفائه لاحقاً، ظللت آتي إلى هنا باستمرار. لقد صار هذا المكان بالنّسبة لي غايةَ جولةٍ تكاد تكون يوميّةً.

هبطا المدينةَ. اِعتنى بيتر بكلارا، ثمّ شربا ماء ـ الحياة في الغرفة التي

كان يشغلها لوكاس. المطر يتساقط عند حافة النافذة، ثمّ يتسرّب إلى الغرفة. قام بيتر يبحث عن منشفة لتجفيف المياه.

ـ حدِّثني عن نفسك يا كلاوس.

ـ ليسَ لديَّ ما أحكيه.

ـ أكانت الحياة هناك، بالجانب الآخر، أسهلَ؟

هزّ كلاوس كتفَيْه:

ـ إنّه مجتمع قوامُه المال. ليس ثمّة مجالٌ للأسئلة الوجودية. عشتُ ثلاثين سنةً في وحدةٍ قاتلة.

ـ ألم تتّخذ قطُّ زوجةً؟ ألم يكن لك أولاد؟

ضحك كلاوس:

ـ بلى، عرفت الكثير من النّساء. لكن لم يكن لديّ أولاد.

وبعد برهة صمتٍ سأل:

ـ ماذا صنعت بالهَيْكلَين يا بيتر؟

ـ أعدتُهما إلى مكانهما. أترغبُ في رؤيتِهُما؟

ـ لا ينبغي إزعاج كلارا.

ـ لن نعبر من أمامها، ثمّةَ بابٌ آخر. ألا تذكره؟

ـ أنّى لي أن أذكره؟

ـ كان بإمكانك ملاحظته وأنت مارٌ من الأمام. هو الباب الأوّل على اليسار إن كنتَ قادماً من سلالم الطابق.

ـ كلاّ، لم ألاحظه.

twitter @baghdad_library

ـ صحيحٌ أنّ الرّائي يختلط عليه هذا الباب مع البساط المعلّق على الجدار.

دخلا إلى المساحة الصغيرة التي يفصلها عن غرفة كلارا ستارٌ سميك. أشعل بيتر مصباح جيب وأنار الهيكَلَيْن.

قال كلاوس بصوتٍ خفيضٍ:

ـ ثمّةَ ثلاثة هياكل يا بيتر.

قال بيتر:

ـ تستطيع الحديث بشكلٍ عاديّ. كلارا لن تستيقظ. إنّها تتناول منوّمات قويّة. لقد نسيت إخبارك بأنّ لوكاس قد أخرج هيكلَ ماتياس سنتَين بعد دفنه. أخبرني بأنّ الأمر كان أيسر بالنّسبة له. إذ صار يشقّ عليه أن يقضي لياليه بالمقبرة كي يؤنسَ الطّفلَ.

أنارَ بيتر فِراشاً تحتَ الهياكل:

ـ هنا كان ينام.

تحسّس لوكاس الفراش، والغطاء العسكريّ الرّماديّ الذي يغطّيه:

ـ إنّه دافئ.

ـ فيمَ تفكّر يا كلاوس؟

ـ بِودّي أن أنام هنا، ولو ليلةً واحدةً. هل تسمح لي يا بيتر؟

ـ أنت في بيتك.

محضر مرسلٌ من السلطّات بمدينة ك. إلى سفارة د.

الموضوع: طلب ترحيل مواطنكم كلاوس ت. المعتقل حاليا في سجن مدينة ك.

كلاوس ت.، البالغ من العمر خمسين سنة، والذي بحوزته جواز سفر ساري المفعول، وفيزا لثلاثين يوماً. وصل إلى مدينتنا يوم ٢ أبريل من السّنة الجارية. واستأجر غرفةً بالفندق الوحيد بالمدينة، الفندق الكبير، الواقع بساحة برانسيبال.

كلاوس ت. قضى ثلاثة أسابيع بالفندق، يتصرّف على شاكلة سائح؛ يتجوّل بالمدينة، ويزور الأماكن التّاريخية، ويتناول طعامه بالفندق أو بأحد المطاعم الشّعبيّة.

كلاوس ت. كان كثير الذهاب إلى المكتبة الواقعة قبالة الفندق، حيث يشتري أوراقاً وأقلاماً. وإذ كان يتحدّث لغة البلد، فقد كان يتبادل الحديث مع الكتبيّة، السيّدة ب. ومع أشخاص آخرين بأماكن عمومية.

وبعد ثلاثة أسابيع سأل كلاوس ت السيّدة ب. عمَّ إذا كانت تستطيع أن تؤجّرَه غُرفَتَين فوقَ المكتبة، بالشّهر. وإذ عرض مبلغاً مرتفعاً، تركت له السيّدة ب. شقّتها المكوّنة من غرفتَيْن، وذهبت للعيش عند ابنتها التي كانت تسكن في عنوانٍ قريب.

كلاوس ت. طلب تمديد الفيزا ثلاث مرّات، وهو ما تمّ له دون عراقيل. بالمقابل، ثمّ رفض طلب التّمديد الرّابع الذي تقدّم به شهرَ غشت/آب. لم يأبه كلاوس ت. لهذا الرّفض، وبسبب تقصير موظّفينا، ظلّت الأمور كما هي إلى غاية شهر أكتوبر/تشرين الأوّل. يوم ٣٠

twitter @baghdad_library

أكتوبر، وأثناء فحص هويّة روتينيّ انتبهت الشرطة المحليّة إلى أنّ أوراق كلاوس ت. لم تكن قانونية.

آنذاك كان كلاوس ت. قد صار مفلساً. كان مديناً للسيّدة ب بأجرة شهرين، وما كان يأكل تقريباً، كان يجوب الحانات حيث يعزف الهارمونيكا. كان السكارى يؤدّون عنه ثمن المشروبات، والسيدة ب. تأتيه كلّ يوم بالقليل من الحساء.

أثناء التحقيقات ادّعى كلاوس ت. أنّه قد وُلد ببلدنا، وأنّه قضى طفولته في مدينتنا، ببيت جدّته، وأنّه يريد البقاء هنا إلى حين عودة أخيه لوكاس ت. ولا وجود لاسم المدعو لوكاس ت. في أيّ سجلٍ من سجلاّت مدينة ك.، لا هو ولا اسم كلاوس ت.

نرجو منكم التفضّل بدفع الفاتورة الملحقة بالمحضر (مخالفة، صائر التحقيق، إيجار السيّدة ب.) وأن تعملوا على ترحيل كلاوس ت. على مسؤوليتكم.

وقّعه بتفويض من سلطات مدينة ك: إ. س.

لدواعٍ أمنيّة قمنا بتفحّص المخطوط الذي كان بحوزة كلاوس ت. ويدّعي أنّه، بهذا المخطوط، يقدّم البرهان على وجود أخيه لوكاس الذي، بحسب زعمه، قد كتب الجزء الأكبر من المخطوط، ولم يُضف هو (أي كلاوس)، سوى الفصل رقم ثمانية. بيد أنّ الخطّ المكتوب به المخطوط، هوَ هوَ، لم يتغيّر من السّطر الأوّل إلى السّطر الأخير، كما أنّ الأوراق لا تحمل أيّ أثر للتّقادم. النصّ كلّه مكتوبٌ بخطّ يدٍ واحدة، كتبه شخص واحدٌ، في مدّة زمنيّة لا تتجاوز ستّة أشهر، أي أنّ كلاوس ت. هو الذي كتبه أثناء فترة إقامته بمدينتنا.

أمّا عن محتوى النّص، فلا يمكن أن يكون إلا ضرباً من الخيال، لأنّ لا الأحداث المذكورة شهدتها مدينة ك. ولا الأشخاص الواردة أسماؤهم وُجدوا فيها، باستثناء شخصيّة واحدة، هي جدّة كلاوس ت. المزعومة، والتي استطعنا العثور على أثرها. يتعلّق الأمر في الواقع بامرأة كانت تملك منزلاً في الموضع الذي أُقيم فيه الملعب الرياضي. لقد توفيت منذ ٣٥ سنةً دون أن تخلّف وريثاً، وترِد في سجلاّتنا تحت اسم ماريا ز.، زوجة ف.

واردٌ أنّه أثناء فترة الحرب، عُهدَ إليها بحضانة طفلٍ أو أكثر.

twitter @baghdad_library

هذا الكتاب

حين عاد لوكاس إلى بيت الجدّة، استلقى قرب سياج الحديقة تحت ظلّ الشجيرات، ولبث منتظراً. توقّفت سيارةٌ من سيّارات الجيش أمام مبنى خفر الحدود. نزل بعض العساكر ووضعوا أرضاً جسداً ملفوفاً في غطاءٍ تمويهٍ عسكريّ. خرج من البناية رقيبٌ وأشار إلى العساكر بأن يزيحوا الغطاءَ. قال الملازم زافراً:

ـ لن يكون من السّهل التّعرّف على هويّته! على المرء أن يكون أحمق كي يحاول عبور هذه الحدود القذرة، لا بل وفي وضح النّهار!

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ISBN 978-9933351649